قلب الأم

جمعة محمد جمعة

الغلاف والرسوم الداخلية
بريشة الفنان عبد السلام مدنى

بسم الله الرحمن الرحيم

الـــى ماضينا الذى احترقنـا فى أتـون ناره ،
وافتديناه بالدم ، واستشهدنا أحيـاء ..

الـــى حاضرنا الذى نذوب فى بوتقـة بركانه ،
يضيعنـا ونضيعه هبـاء ..

الـــى غدنا الذى غابت فى الصراع عنا أحلامه ،
يالبؤسنا من الصراع داء ..

الـــى ولدى يحيى وأخته عفاف ..

الـــى كل الزهور فى حدائقنا ، نأمل فى الغد
زمنا بلا حروب وليهنأ بالحياة أطفالنا الأحباء

جمعة محمد جمعة

انتهت الأسرة من تناول طعام العشاء مبكرا على غير العادة ، قام الأستاذ حسين ولم يفته أن يثنى على لـون الطعام الذى يحبه ، قال وهو يتجه نحو المطبخ ليغسل يديه :

— كانت المكرونة الاسباجيتى رائعة هذه المرة ..

قالت مديحة وهى تلوك طعامها منشرحة :

— صنع يدى ..

اختفى حسين داخل المطبخ بينما أردفت مديحة قائلة :

— لو كان لى زوج ، وذاق صنوف الطعام اعداد يدى لما فكـر فى تناول شئ خارج البيت ..

عاد حسين ووقف خلفها يجفف يديه فى المنشفة ، ينصت الـى كلماتها ، قال وهو يأخذ طريقه الى حجرة المعيشة :

— لا تنس الشاى يافطومه ..

قالت مديحة فى سرور :

— سأعده أنا ..

تناول حسين سيجـارة مـن علبته الموضوعة فوق التليفزيـون وأشعلها بالولاعة " الرونسون " التى أهداها له عصمت زوج أختـه ليلى ، تناول مجلة البرامج واتجه الى مكانه المفضل فوق الأريكة جوار الشرفة ، أخذ يتصفح المجلة ، الدخان المتصاعد من فمـه يصنـع حلقات على شكل دوائر تتسع كلما ارتفعت الى أعلى حتى تتلاشـى يقلب الصفحات فى تكاسل ، نظر نحو جهاز التليفزيـون الصامت ثم حسر نظرته فى المجلة يعاود تصفحها ، تطلع الى وجه أخته روحيـة وهى تدلف الى الحجرة فى ثوبها البيتى الرقيـق ، تمتم لنفسـه كما اعتاد كلما رأى وجهها المتوتر المتورد بالدم " بان عليك الكبر ياروحية " ، كان يعرف سبب توترها هذه الليلـة فعند منتصـف الليل سيدق جرس الهاتف ، تهرول اليه مسرعة ، تستمع الى صوت ابنها الحبيب عاطف ، داخل نفسه بعض الرثـاء لحالها ، الشيب

المبكر تسلل كاللص الى خصلات شعرها الأسود المنسدل خلف ظهرها حتى خاصرتها ، وقد ظهر بعض النمش فوق غمازتيها ، وأسفل ذقنها التى تبدو وكذقن فتاة فى ميعة الصبا ، بعض التجاعيد الملساء بدأت فى الظهور فوق جبهتها الناصعة البياض ، يعجبه دائما ، ويلذ له مشاهدة الحركة الدائبة لحاجبيها ارتفاعا وانخفاضا ويحلو له مراقبتهما أثناء تحدثها ٠

جذب حسين منفضة السجائر لتكون فى متناول يده فوق المنضدة الصغيرة القائمة فى ركن الحجرة ، نفض رماد سيجارته وقال محدثا روحية :

ـ تقترب الساعة من التاسعة والنصف ٠

ثم أردف وهو يتمطى ملقيا بظهره ليلاصق مسند الأريكة :

ـ فقرة اعلانية ، ثم نشاهد السينما والحرب ، ارجو أن يكون فيلم الليلة ممتعا كفيلم الاسبوع الماضى ٠

هز حسين رأسه أمام صمت أخته ، نظراته الخاطفة ينقلها بينها وبين التليفزيون الصامت ، يكاد يسمع صوت دقات ساعته عاليا ، يرقب عقرب الثوانى يقترب من عقرب الدقائق ، يتعانقان فى ثانية ثم يفترقان ، الساعة تقترب أكثر فأكثر من التاسعة والنصف، بدأ يتأمل روحية وهى تلهو بحبات عقدها الكريستال الأملس ، رآها تتنهد وتمسح شعرها بيدها ، غيبت الشعيرات البيضاء فى طيات الشعر الأسود ، أطالت النظر الى حسين بعينيها العسليتين الشاردتين قائلة :

ـ افتح التليفزيون ياحسين ٠

أحست روحية بنظراته مسلطة عليها ، عملت على شغله عنها وعما يدور بذهنها ، وفى خيالها ، بعد حين لا شك أنه سيسألها عما يدور برأسها ، عليها أن تخبره بترقبها مكالمة عاطف لها من موسكو ، قد يشعل سيجارة من سيجارة ، وقد يغادر مجلسه ليذهب الى الشرفة فهو يكره أن يراها مشغولة

أو متوترة أو حزينة ، يحبها دائما مرحة سعيدة ، وهى تحب أن تراه سعيدا فرحا ، تكن له أعماقها حبا متدفقا يسرى فى أوصالها الباردة فتنتشى بحرارته ، وحنان سابغ لا يستطيع أن يقدمه زوج أو أب أو ابن ، ودت لو أدرك كم تحبه!! تمنت أن تغادر مكانها وتخر راكعة ملقية برأسها المثقل بالهموم فوق ركبتيه وتطلب منه أن يمسح بيده الحانية شعرها ، يقينا ستستريح من عناء الدنيا وهموم الحياة، يعم الصفاء أرجاء رأسها ، كما تمنت أن يصحبها الى فراشها فتتمدد فوقه ويهدهدها حتى تنام.

تتوالى الاعلانات على الشاشة الصغيرة ، بعضها مزعج زاعق وبعضها هادئ ، هذه فتاة حلوة التقاطيع تعلن عن صبغة للشعر شعرها الحريرى الأصفر يتهادى خلف ظهرها ، كم من مشاهدات لها فى البيوت يحسدونها على ما يتمتع به شعرها من فتنة وجاذبية هى أيضا محسودة طول حياتها ، منذ دخلت بيت زوجها الدكتور مصطفى والعيون تراقبها ، ترصد كل ما يدور فى حياتها ، حسدتها النسوة على حظها الوافر بالزواج من دكتور ، وكانت نظرات الحسد تكاد تخلع منهن العيون ، وهو يحيط معصمها بالأساور الذهبية ، يحيط كتفيها بذراعيه مقبلا جبينها فى حنان وحب ، اخواتها رفيقات شبابها نظرن اليها فى حسد وغيرة وغيظ وحقد ، رأين فى زواجها فوزا عظيما عليهن جميعا ، فازت بما لا تستطيع احداهن الفوز به ولا فى أحلام اليقظة ، أمل حققته من العسير على احداهن تحقيقه ، أو مجرد المجازفة بتحقيقه فى أحلام النوم عفوا أو قسرا.

مرت عليها الأعوام مرورا سريعا ، بدت كأنها لحظات لما كان يكتنفها من سعادة ووئام ، انطلقت فى حياتها الزوجية ، وكأنها فى قطار يقطع الفيافى ، يثير خلفه غبارا يمنع العيون من رؤيته ، لا يستطيع من تخلفوا اللحاق به ، كانت سعيدة وغبار الحياة يصنع ستارا كثيفا يقيها عيون حسادها ، تلك العيون التى تخافها وتخشاها.

توجت حياتها السعيدة بانجاب طفلها الأول جمال ، وفـــى غفلة من الجميع أنجبت عاطف ، أخذت ترعاهما حتى شبا عـــن الطوق وبدأ البيت يمتلئ بصخبهما وضجيجهما ، لعبهما ، أو شجارهما ، توفق بينهما بأمومة صادقة ، وحنان يفيض مـــن نبـــع لا يجف ، وحب يفوق تصوراتها جمعاء قبل الزواج عـــن حـــب الأم للأبنـــاء .

عاشت روحية أجمل أيام حياتها تصنع سعادتها وسعادة زوجها وبينهما طفليهما جمال وعاطف ، تنتقل بهم من فيلا شبرا الـــى فيـــلا الهرم ، ومن فيلا الهرم تطير بهم الى الاسكندرية ، ترعى طفليهـــا وتوفر لهما حياة الدعة والهدوء ، تسهر على راحة زوجها ، تضفـــى بروحها طعما جديدا للحياة المتجددة السعيدة على الدوام .

سافر الدكتور مصطفى الى أوروبا ، أخذ يتنقل بـــين باريـــس ولندن وبون ومارسيليا ، تبعت تنقلاته برسائل الشـــوق والوجـــد تطالبه بالعودة ، الطفلان يفتقدانه بينهما ، حياتها بدونه فـــراغ لا تطيقه ، تشعر بالوحدة والوحشة فى فيلا شبرا فتهجرهـــا الـــى فيلا الهرم ، تشعر بالضياع فى فيلا الهرم فترحل الى الاسكندرية ، تشعر فى الاسكندرية بالغربة والتيه فتعود الى بيت أسرتها بـــين أخوتها علها تجد لروحها بعض الطمأنينة ، كانت تزيد اهتمامهـــا بطفليها ، لا ينبغى أن تتركهما حتى يسأما الحياة ، أو يشعـــرا بافتقاد أبيهما وقد حل حسين محله الى حين عودته ، لكن الأمـــر كان أكبر مما تصورت ، فاض قلبها هى قبل طفليهـا بالحنـــين الـــى زوجها ، الرغبة فى عناقه وتقبيله ، الضياع الجميل بين ذراعيـــه وازداد طفلاها اعرابا عن شوقهما لأبيهما بالسؤال الدائم عن موعـــد عودته ، يحلمان به ، يبكيان ، أصابها الأرق ، غشـــى حياتها القلق ، بدأ وجهها الباسم على الدوام يعرف العبوس ، مآقيهـــا تكتوى بسخونة الدمع ، فؤادها ينفطر وهى تبذل كـــل محاولاتهـا لترضية طفليها ،كادت تسقط مغشيا عليها وهى تتلقى برقيته .

أعدت روحية نفسها للقاء زوجها العائد من أوربا بعد غياب زاد عن عام ونصف ، ذهبت الى المطار متألقة فى ثوب كان يعشقه أهداه لها فى عيد زواجهما الثانى ، شعرها الأسود ينسدل فوق ظهرها ، تتطاير خصلاته لتستقر للحظات فوق الكتفين فى لهو ودلال ، وجهها تفتح وتورد بحمرة الشفق ، الابتسامة المشرقة يحيط بها جمالها الهادئ الفاتن ، عادت اليها الحياة بكل ما كانت تفتقده ، عاد اليها الحب والحنان ، الدفء والشباب عادت حياتها التى غابت بغيابه ، أعدت برنامجا حافلا لحفل تقيمه بمناسبة عودته ، تمشى فى طريقها الى استراحة المطار وطفليها يجريان وراءها فى شقاوة ، يضحكان ، يلهوان فى براءة ، يحلمان بأبيهما الذى سيهبط عليهما هبوط ملاك من السماء ، يتطلعان الى السماء ليريا الطائرة ، يمنيان نفسيهما بالهدايا الثمينة التى سيحملها لهما ، يعلن كل منهما عما حلم به من هدايا بين ذراعى أبيه ، تنظر الى طفليها وترى فى أحلامهما سخافات أطفال لا محل لها ، فلا تهمها الهدايا ولا أى شئ بل ما يهمها مصطفى بدمه وروحه ، بحبه وحنانه.

دارت الطائرة فى السماء ، بدأت الهبوط ، تهادت فوق أرض المطار ، انشق صدرها وقفز قلبها خارجا منه ، اندفع فى الهواء وتشعلق ، تلتقط أنفاسها بصعوبة ،تشرئب أعناق الصغيرين وتتعلق عيونهما بباب الطائرة وهو يفتح ، تتسع حدقتاها تبحث عن مصطفى بين الركاب ، يظهر متأبطا ذراع امرأة شقراء ، تكتسى الدنيا أمام عينيها بالسواد ، تدور بها الأرض وتدور رأسها دورانا عكسيا ، تشعر برغبة ملحة فى القيئ ، تستند بجسدها على الحاجز ، يقطع مصطفى المسافة مقتربا والطفلان يصيحان فى ابتهاج وسرور :

— بابا .. بابا ..

تشنجت قبضة يدها على يد جمال ، هرول عاطف الى ذراعى أبيه الممدودين لضمه وعناقه ، أخذ مصطفى يحاول جذب يد جمال

من قبضتها ليضمه الى صدره فلم يفلح ، انحنى وقبله ، اقتربت الشقراء وداعبت جمال بيدها فوق خده فانتفض ، لاذ بأمه يستدير حولها هاربا من مداعبات اليد الممدودة لمداعبته ، كأنها امتدت لتنتزعه من أمه ، تساقطت دموع روحية ملتهبة تشوى وجهها ، ببرود صافحت مصطفى ، تماسكت مبتلعة دموعها ، دعاهم مصطفى بعد أن قدم زوجته الجديدة الى مغادرة المطار •

تطلعت روحية الى الطائرة تتلمس الطريق الى قلبها ، لم تجد له أثرا ، مشت وراء زوجها تجر أقدامها ، جمال يسبق خطواتها ، كأنه يسحبها وراءه ، الشقراء ترطن بلغة بلادها ، يشاركها مصطفى الرطن ، روحية ترى فى رطنهما ثرثرة مقيتة ، وفى السيارة قدمت اليه مفتاح فيلا الهرم قائلة فى أسى وحزن :
— أرجوك أن تذهب بى والأولاد الى بيتنا •

نظر اليها متسائلا :
— لماذا ؟ و••

وقبل أن يستطرد قاطعته قائلة :
— حاجياتنا هناك •

أطرقت برأسها بعد أن نظرت اليه نظرتها الأخيرة ، وفى التو ، واللحظة اتخذت قرارها بعدم الاستمرار فى الحياة معه ، أمام اطراقها عاد مصطفى الى الثرثرة ، الشقراء تسأله عن كل شئ واندمج معها فى ثرثرتها •

توقفت السيارة أمام البيت ، غادرتها روحية بصحبة طفليها ، بكى عاطف متشبثا بأبيه ، أبدى رغبته فى الذهاب معه ، أمام اصراره تركته روحية يعود الى السيارة ، ودعت السيارة تنطلق بنظرات غائبة عن الوعى ، ترى زوبعة خلقها الوهم تبتلعها وتغيب عن الوجود ، صعدت الدرجات متحاملة على ضعفها تتطوح يمنة ويسرة ، استندت على باب الشقة ، سقطت مغشيا عليها ، وصراخ جمال يشق السكون :

— ماما ٠٠ ماما ٠٠

تردد صراخه عاليا فى خواء رأسها ، لم تشعر بحسين وهو يحملها ويضعها برفق فوق الفراش ، أمر الخادمة باعداد كوب من عصير الليمون ، وأمر أخته مديحه باستدعاء الدكتور رفعت ، ينظر مندهشا ، يتساءل عما حدث ، حاول الاستفسار من جمال فلم يظفر بشىء ، الصغير لا يستطيع الكلام ، لا يكف عن البكاء٠

هزت روحية رأسها كى تفيق ، الذكرى تلوح فى خاطرها كلما توترت أعصابها ، أو زادت ضربات قلبها من أى انفعال ، أفاقت وتطلعت الى فاطمة وهى تختار مجلسها ، ومديحة وهى تضع صينية الشاى ، تناولت كوبها وأخذت ترشف الشاى فى بطء٠

قال حسين محاولا جذب انتباهها :

— روحية ٠٠ لقد بدأ الفيلم٠٠

أنى لها أن تنتبه ، لم يتوقف طوفان الحسد والحقد طوال السنين ، ها هى بعد سنوات طوال عاشتها وحيدة ، ترعى جمال ها هى محسودة لنجاحه فى حياته ، يحسدونها ويعرفون الثمن الذى دفعته من روحها ، وقلبها ، وجسدها ثمنا لسعادة لم تكتمل ، محسودة رغم افتراقها عن مصطفى ، رغم فقدها لابنها جمال ، وهى التى كانت تقول لكل من يعرض عليها الزواج :

— يكفينى من الدنيا جمال ، ابنى وزوجى وأخى وحبيبى ٠٠

رفعت طرف سبابتها ، أطاحت بدمعتين انحدرتا من مقلتيها ، قالت وهى تستعيد رباطة جأشها :

— الليلة سيكلمنى عاطف من موسكو٠

قالتها وشعرت بفرح ، كأنها تزف خبرا لم يعرفه أحد ، شاركها حسين فرحتها وقال متصنعا الدهشة :

— كدت أنسى ، لا تنسى طلب صورة له ولنجوى٠

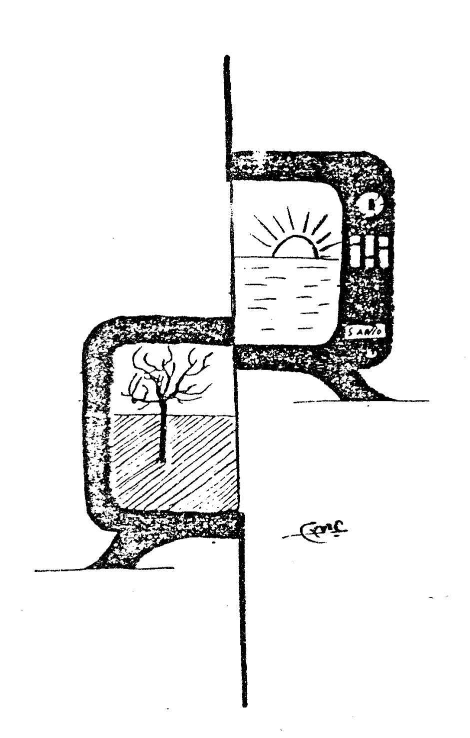
نظرت اليه نظرة عتاب ، لم تألف منه نسيان شىء يخصها ،

كيف ينسى وله ذاكرة التاريخ ؟ ، انه يتصنع النسيان ، ربما يكون نسى فعلا ، لعل داء النسيان الذى أراده لها لتنسى محنتها انعكس عليه ، تذكرت محاولته محوابنها من ذاكرتها ، حاول طمس معالم أى صورة له أمام عينيها ،أو أى رائحة له فى أنفها ، صحبها معه الى الأراضى الحجازية محاولا ابعادها عن ذكريات حياتها ، لم تنس جمال ، هو روحها ،الجزء الأعظم من حياتها ، لا تنكر أنها هدأت بعد الحج ، وأن الصبر قد هبط على قلبها فبردت النيران التى كانت متأججة ، ولا تنسى جفاف دموعها ، لكن ليس صحيحا أن ذكرى جمال يمكن أن تندثر أو يطويها النسيان ، ليس صحيحا أن قلبها قد اقتنع بموت جمال ، لقد ذهب للحرب لينتصر ، ليسترد الحق المغتصب ، لم ينتصر ، ولم يسترد الحق ، لا تصدق أنه استشهد ، فالهزيمة لا تعترف بالشهادة ، لم تقتنع وقد أعلنتها الحكومة رسميا بفقده ، واتخذت اجراءات صرف المعاش لها ، لم يقتنع قلبها بذلك كله أدلة وقرائن ، ففى قلبها أمومة تحس ، لم يمت فى قلبها وسيظل حيا فى روحها ان لم يكن أمامها ، تتوقع فى أية لحظة أن يدق جرس الباب ، يدخل بطلعته البهية ، وقامته المديدة ،ووجهه البشوش ، مهللا بروحه المرحة ، يندفع الى أحضانها ويقبلها فى جبينها ، لم يمت رغم مرور ست سنوات كاملة على اختطافه من أمام عينيها ، تتذكره فى كل حين ، تترقب رجوعه طيلة عمرها ..

تتابع روحية فيلم السهرة ، تتابع البطل يحارب ، يكد يتعب ، يتعرض للمخاطر والأهوال ، يرى الموت يحيط به من كل جانب ، ينجح البطل فى انجاز مهمته ، ينتصر على أعدائه ، تفرح وتهمس لنفسها " له بعد ذلك أن يحيا بطلا ، يكرم وينال أرفع الأوسمة ، له أيضا أن يستشهد ، ينال مكانه المرموق بين الأنبياء والصديقين ، جمال هناك حى يرزق ، يناضل ويحارب ليحقق النصر ، بغير ذلك لن يعود ، لن يعود وحقه فى يد الغاصب المعتدى " ..

بدأت أحداث نهاية الفيلم تجذب منها الانتباه ، والبطـــل يقع فى مأزق جديد ، حاصره الأعداء وأمسكوا به ، ساقوه الى حجرة التعذيب ، أخذت تعض شفتها السفلى بأسنانها ، أعماقهـــا تهيب بالبطل أن يقاوم حتى آخر نقطة دم تجرى فى عروقه.

* * *



كان حسين يتمنى أن يمتد عرض الفيلم الى مالا نهاية ٠٠٠ انه يخشى ما سيحدث بعد انتهائه ، ينظر الى روحية فى اندماجها مع البطل بقلق ، تعلق وتتكلم ، واقترب الفيلم من نهايته ،أشعل سيجارة ، استعدت فاطمة لتنظيف الحجرة ، حملت صينية الشاى الى المطبخ وعادت ، قامت مديحة الى حجرتها ، ارتدت ثوب النوم وعادت ، لم يبق سوى القاء تحية المساء ٠٠

أغلقت فاطمة التليفزيون ، تأهبت للذهاب الى حجرتها ٠٠

جاءت ليلى تحمل ابنها سمير ، القت به أرضا قائلة فى ضيق :

ـ روح ياشيخ ٠٠ هديت حيلى ٠٠

ثم وجهت حديثها للجميع :

ـ نمت أنا ولم ينم ٠٠

ترقب روحية سمير وهو يحبو على الأرض ، عثر على ورقة من جريدة قديمة ، أخذ يلهو بها ، قالت روحية ببطء :

ـ لم يتكلم عاطف ياحسين ٠٠

قال حسين :

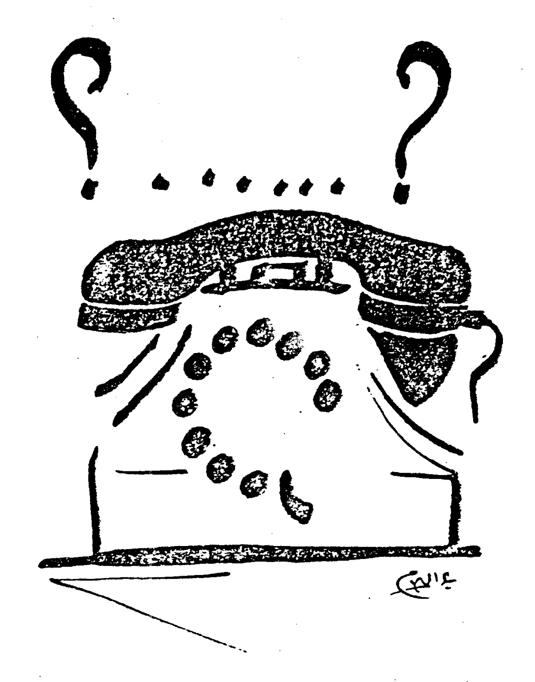
ـ مازال الليل طويلا ياروحية ، ها نحن فى انتظاره ٠٠

تناولت روحية مجلة البرامج من يده ، أخذت تقلب صفحاتها وكل بدنها ، وحواسها آذان متلهفة لجرس الهاتف ٠

آذان متلهفة ، أناملها التى لا يستقر لها قرار ، دائبة الحركة تكاد تفتك بالثوب من شدة القلق ، تكاد الأظافر يقطر منها الدم وقد انهالت عليها قضما بأسنانها ٠٠

آذان متلهفة ، الذراعان اللذان ينتقلان من مسند المقعد الى حجرها ، من حجرها الى خلف رأسها ، من خلف رأسها الى التشابك فوق صدرها ٠

آذان متلهفة ، العينان الزائغتان تجوبان الحجرة ، الأرض والسقف والجدران ، الأثاث ، تجوبان العالم ، تجوبان الماضى



والحاضر ، تريان الضباب يغلف المستقبل ، تجوبان عالم الخيال ، تفران من عالم الحقيقة.

آذان متلهفة ، القدمان اللتان تدقان الأرض دقات رتيبة .. تختفيان تحت ذيل الثوب ، تطلان وتعبثان بطرف السجادة .. تتلامسان ، تتعانقان ، تدخلان الشبشب وتخرجان.

آذان متلهفة ، الأذنان المتعلقتان بجرس يرن في عالم الوهم على الدوام ، صوت محبوب يتسلل اليهما " ماما .. ماما ".

الواقع بكل ثقله لا يستطيع قطع خيط الوهم الممتد من الحجرة الى الهاتف فى الصالة كميت فى عالم الأحياء ، كل جارحة فى بدنها آذان متلهفة ، صمت الهاتف ينقل الى فؤادها صمتا أبديا لحظة وراء لحظة ، دبيب خطا الليل الموحش تمزق صدرها بأنياب وحش مفترس ، القلق الذى حولها انتقل الى المرئيات ، يحول وجودها كله الى عدم مقيت٠

قالت مقطبة جبينها تزجر سمير وهو يمزق الأوراق ويملأ بها أرض الحجرة :

— ولد ياسمير ، لا تلق الأوراق على الأرض٠٠

كانت نظرة غاضبة الى جمال أو عاطف كفيلة بأن تجعله يكف عن عمل لا ترضى عنه ، همست لنفسها " متعبون هم أطفال اليوم ربما لعدم اهتمام أمهاتهم بتربيتهم ، فالأم موزعة بين البيت والعمل ورعاية الأطفال ، لابد لها أن تفشل فى اثنتين من المهام الثلاث "٠

عادت لأيامها الخوالى ، كانت أما متفرغة ، وربة بيت متفرغة وزوجة متفرغة ، بعقلها وقلبها وروحها تعايش زوجها ، بعقلها وقلبها وروحها تؤدى مهام بيتها ، بعقلها وقلبها وروحها تربى طفليها ، ذهب الزوج وبقى الطفلان ، ثم ذهب عاطف مع أبيه بعد حصوله على شهادة الاعدادية ، وبقى جمال ، ذهب جمال الى الحرب ولم يعد ، وبقى لها الخواء فى العقل والقلب والروح٠

نجمت كل الكوارث من نظرات الحسد ، من كلمات الحسد التى كانت تسقط فى أذنيها دونما خجل أو حياء ، كلما ألمت بها كارثة ازدادت اعتقادا فى الحسد وازدادت نقمتها على الحاسدين٠

شعرت بالخدر يسرى فى دمائها ، كأن أسراب النمل تزحف فوق ساقيها تنقل الخدر والتنميل الى بقية أجزاء جسدها ، حاولت رفع قدميها عن الأرض فلم تفلح ، زعقت خائفة مرتعبة وجسدها يرتجف ، لاح لها الشلل مرة أخرى٠

ـ حسين ، لا أستطيع القيام و٠٠

قفز حسين هلعا من مقعده ، اندفع نحوها ، كذلك فعلت ليلى ، صرخ سمير فزعا من الاضطراب والارتباك الذى شمل الحجرة ارتفع صوت بكائه وهو يجد نفسه وحيدا لا يهتم به أحد ، نظر الى أمه ، كانت تقف بجوار روحية ، جاءت فاطمة مهرولة ومديحة فى أعقابها على الصراخ ، رفعت فاطمة سمير وأخذت تهدئ من روعه بينما انهمك حسين وليلى ومديحة فى مساعدة روحية على الوقوف ٠٠ وساندتها ، فشلت المحاولة فلم تستطع السير خطوة واحدة٠

صرخ حسين فى أختيه :

ـ ساعدانى فى حملها ٠٠

سيطر الفزع عليهم جميعا ، يتحركون فى اضطراب وخوف ،مشى حسين حاملا روحية كطفل صغير ، يتعثر فى خطواته تحت ثقل جسدها ، واللعنات تنساب من فمه فى خيط لا نهاية له على كل الأمراض ، على الأخص مرض الشلل الذى يضاعف وزن الجسد الحى وضعها بعناية برفق فوق فراشها وهرول الى الصالة ، رفع سماعة الهاتف يستدعى الدكتور رفعت٠

* * *

كانت أسرة حسين تتألف منه وثلاثة أخوات ، أخذ على عاتقه رعاية شئونهن بعد وفاة الأب والأم ، تزوجت أخته روحية من الدكتور مصطفى ، تزوجت ليلى من عصمت ، بقيت مديحة بلا زواج ، كان يرفض كل من يتقدم اليها بحجة الانخفاض فى المستوى الاجتماعى ، فشلت ليلى فى تغيير نظرته كما فشلت من قبلها أختها روحية ، وعندما غير نظرته كان قطار الزواج قد خلفها وراءه ٠٠

ومنذ تخطت الأربعين من عمرها ، وبدأت تسير فى سنوات عقدها الخامس تغيرت أحوالها ، تبدو مع الأطفال كطفلة تلعب تمرح وتلهو ، تشاكس حتى تشبع رغباتها فتنقلب وتخلع عنها ثوب الطفولة البرىء ، تظهر شراستها متنمرة كامرأة تكاد تفتك بالأطفال جميعا ، تتلذذ بايذائهم ، وابكائهم ، مع الشباب تنطلق على سجيتها شابة ، تمزح ، تحلم ، ترق ، تتحدث بلسان الشباب والربيع ، تغرد وتغنى كالطير ، تبدو أليفة كحمل وديع ، ثم تلمس تجاعيد مطلع الشيخوخة ، تصطبغ أصابعها بالمساحيق التى تخفى بصمات الخريف فتجز على أنيابها ، تثور لأتفه الأسباب ، تحطم كل ما فى متناول يدها وتطارد الذباب اذا لمس أرنبة أنفها ، مع السيدات تبدو رقيقة الحاشية ، هادئة الطبع ، رزينة الفكر ، راسخة القلب والعواطف ، تفاجأ بالأطفال يتعلقون بأمهاتهم ، أو بالسيدات ينخرطن فى الحديث عن الزواج والبيت والأولاد ، تنقلب الى متوحشة ، سليطة اللسان ، ترغى وتزبد وتحطم كل خصال الرجال فى كلمات زاعقة ، تقلب موازين الحياة وتعلن نقمتها على سنن الكون التى أوجدت عالمين ، عالم الرجال ، وعالم النساء ٠

عرف الجميع أحوالها المتقلبة ، اعتادوا احتمالها على علاتها ، فى هدوئها وثورتها ، لم يسلم من ايذائها أحد من الأقارب ، أو المعارف ، أو الأصدقاء ، لا الأطفال ، لا النساء ولا الرجال ٠

كان حسين يعرف عقدة أخته ، يعاملها كطفلة في جميع الأحيان ، لما كانت تسببه له من ازعاج ، اذا ثارت وغضبت يسترضيها بقبلة حانية ، أو يأخذها بين ذراعيه فتنخرط باكية ، أو يعدها بهدية لطيفة ، أو نزهة خلوية تعيد اليها نفسها ...، أما روحية فكانت تتحاشى الاصطدام بها ، كانتا تبدوان متخاصمتين على الدوام ، فمديحة لا تترك لأختها كلمة دون التعليق عليها جدا أو مزاحا ، كان حسين يثق في رجاحة عقل روحية ويطلب منها الاحتمال ، كان يدرك أن لكل شئ نهاية الا وجود مديحة في البيت ، فقد بمرور الأيام كل أمل في تقدم كبش الفداء ليتزوج بها ، فكان عليه احتمالها بما في نفسها من خير يسير ، وشر كثير ، حتى توافيه المنية أو توافيها ويدع العلم عند الله.

كان لتواجد مديحة وسط الأسرة أوفر نصيب فيما اكتسبه من صبر على المكاره ، واحتمال لمشاق الحياة ، تقبل — رغما عنه — سخافاتها المقصودة أو العفوية ، اعتاد الهدوء في معالجة كل المواقف والأزمات ، اكتسى طابعه بهدوء جميل ، تحلى بالحلم والقدرة في السيطرة على الأعصاب ، استكانت روحه منذ سنين طويلة ولم تعرف الثورة اليها طريق ، لم يكن يكرهها ، ولم يشعر يوما بأي نوع من المقت نحوها رغم كل المضايقات ، فهي أخته والحب في قلبه لهن جميعا يفوق حبه لزوجته فاطمه ، بل لنفسه ، ولم ينقص ذلك من مكانته في قلب زوجته ، تحبه وتحترمه وتطيعه ، ومنذ دخلت البيت وهي سيدته المحترمة ، والزوجة المصونة ، فهي لا تتكلم الا بحساب ، لا تخطئ ولا تغضب ، لا تسمح لأحد أن يثور عليها أو يغضب منها بهدوئها وصبرها وأدبها ، وطيبتها ، يئست مديحة نفسها من محاولة اثارتها أو استفزازها ، فأطلقت عليها " جبل الجليد " ، انصبت ثورة مديحة على الخادمة الصغيرة بعدما عرف الجميع كيف يعاملونها ، توقع الجميع أن تهرب الخادمة كما هربت السابقات عليها.

كان الصباح غير مألوف فى البيت ، قضى حسين الليل كلـــه جالسا القرفصاء فى مقعد فى حجرة المعيشة ، يغفـو قليلا ليصحـو كثيرا ، زوجته فاطمة وأخته ليلى تتناوبان الجلوس الى جوار روحيـة التى حقنها الدكتور رفعت بمهدئ أثناء الليل ، ثم تركهـا علـى أن يعود ها فى الصباح ٠

تثاءب حسين وتمطى ، شعر بتعب جسده ، ظهـره يكاد يتكسر كعود قش جاف ، دس قدميه النحيلتين فى النعل وســار الى الصالة ، قابلته فاطمه فألقت تحية الصباح :

— هل أعد لك ملابسك ؟
— لا ٠٠ لن أذهب اليوم ، أنا فى غاية التعب ٠
— والافطار ؟
— ليس الآن ، لا شهية عندى ، القهوة فقط٠

قال ذلك واتجه الى الحمام للاغتسال ، بعد الانتهاء ذهب الى حجرته واستبدل جلبابه الأبيض بالقميص والبنطلون ، عاد الى حجرة المعيشة ثانية ، تناول جرائد الصباح التى وضعتها الخادمة فوق المنضدة الصغيرة ، جلس يتصفحها ، لحقت بـه فاطمـة فسألها :

— كيف قضت روحية الليل ؟

قالت زوجته وهى تجلس الى جواره ، بعد أن وضعت صينية القهوة :

— مسكينة ، الأيام تعاندها على الدوام ٠

طرد كمية من الدخان من فمه وقال :

— وليلـى ؟
— فى حجرتى ترتاح قليلا ٠

توقفا عن الحديث لاندلاع صراخ مديحة من المطبخ وارتفـاع صراخ وبكاء الخادمة ، قالت فاطمة مستاءة :

ـ أف .. بدأت مديحة العراك .

هب حسين واقفا ، علامات الغضب ترتسم على تجاعيد وجهه الأسمر ، يعرف في لحظته أن هذا الغضب لا يبرح مكانه سواء في صدره أو على جبينه ، أو على طرف لسانه ، فلا فائدة من زجرها ، أو توبيخها ، أو ضربها ، يحدث شجارها كل يوم أرخى ذراعيه المتحفزتين الى جوار جسده في يأس وقال :

ـ تعبت جدا ، لم أعد احتمل .

قالت فاطمه في هدوئها المعهود :

ـ اذهب واسكتها ، أخشى أن توقظ روحية .

قبل أن يتحرك خطوة واحدة دخلت ليلى مندفعة ومديحة في أثرها تطاردها بالصراخ ، كلاهما ثائرة على الأخرى ، ألقت ليلى نفسها فوق مقعد صادفها ، قالت ووجهها يحتقن بالغضب :

ـ حرام يامديحة ، حرام اضطهاد البنت المسكينة .

قالت مديحة بحدة :

ـ حرام ، مسكينة ، تغيظنى وتكيدنى وتقولين مسكينة .

هزت ليلى رأسها بالرفض لقول مديحة :

ـ البنت مظلومة ياحسين ، لم يحدث منها ما يوجب الثورة ، أو الايذاء ، الرحمة يامديحة ، ربنا بيرحم ، وانت قلبك خلى من الرحمة .

تشنجت مديحة وبدت عصبية أكثر من المعتاد ، أخذت شيح بذراعيها يمنة ويسرة ، وفى كل اتجاه ، وهى تردد :

ـ طبعا تدافعين عنها لمصلحتك ، آه الملعونة

ثم عقبت مهددة :

ـ ليكن فى علمكم بقائى فى البيت مرهون بطردها .. آه ..

وأجهشت بالبكاء ، تقدم حسين ناحيتها ، ربت ظهرها :

ـ مهلا يامديحة ، معلهش ، اهدئى ، اختك روحية راقدة

فى الفراش ، و٠٠

ابتعدت عنه صارخة :

ـ دعنى ، لا تلمسنى ، كلكم تكرهوننى ، تريدون ازاحتى من البيت بأى طريقة ، لكن لا ، لن أحقق لكم امانيكم ، لن أتزوج أبدا ٠٠

اقترب حسين منها ، نظر اليها والغضب يبدل الألوان فى وجهه ، صرخ فى وجهها :

ـ نكرهك ، نحن نكرهك يامديحة ٠٠

ـ نعم ٠٠

ذراعاه يرتعشان بجواره ، خرجت الكلمات من تحت أنيابه :

ـ نحن نكرهك يامديحة ٠٠

وقبل أن تتفوه بكلمة لطمتها يده لطمة قوية كادت تسقطها على الأرض ، استندت الى أحد المقاعد وهى تنظر اليه فى فزع وهو يصرخ :

ـ اخرسى ، ولا كلمة ٠٠

تمالكت نفسها ، اندفعت مسرعة الى حجرتها ، صفقت فى عنف الباب وراءها ، وقفت فاطمة بالباب تمنعه من ملاحقتها ، قالت تطيب خاطره وتهدئ من ثورته :

ـ كفى ياحسين ، كفى ما نالها ٠٠

* *

جلس حسين يتابع دخان سيجارته فى ضيق وتبرم ، يغلى الدم فى عروقه النافرة بجبينه ، أطراف أصابعه ترتعش ، رغم ذلك غزا صدره نوع من التأنيب ، انتابته لحظة ندم لانفلات أعصابه ، يؤلمه أشد الايلام رقاد روحية فى الفراش ، ومديحة لا تكف عن اثارته ٠

أطراف الحديث الدائر بين ليلى وزوجته يتناهى الى سمعه

كهدير أمواج البحر فيهدأة الليل الساكن ، لا يعي منه كلمـــة ، يفرق ـ فقط ـ بين صوتيهما ، هذا صوت أخته ، وهذا صـوت زوجته ، الألم يشطر فؤاده ، يتذكر مرض روحية الذى أرقدها طوال عامين ، يتذكر معاناة البيت كله بسبب انفصالها عـن زوجها ، يتذكر معاناتها التى أثقلت روحه بفقدها لابنها جمال ، لشد ما يحبها ، يحبها أكثر من نفسه ، كاد ينسى نفسه ويعود الى ذكريات الطفولة ، لكن مديحة لا تدع له تلك الفرصة ، اصطدمت أسماعه باسمها فانتبه ، انبعث اللوم الكامن فى نفسه بأنه السبب فى عدم زواجها ، وكلما أوغلت فى رحلة الحياة ازدادت حالتها انحدارا الى السوء .

توقفتا ـ ليلى وفاطمة ـ عن الحديث ، تطلعتا اليه وهو يردد فى شرود :

ـ معذورة .. حكم السن و....

انتبه لنفسه واعتراه بعض الخجل ، أخذ ينقل عينيه بينهما محدثا نفسه " ماذا تقولان لوكانتا تنصتان الى ؟ " تقولان أننى أهذى ،.. " ضحك وابتلع لعابه ، كبت مشاعره ، أطرق برأسه الى الأرض ، اعتراهم جميعا الصمت وسمير يزحف داخلا الى الحجرة ، يحاول الوقوف فيقع ، يحاول مرة أخرى فيتعثر ويقع وأمه مسرورة وهى تراه يكرر المحاولة بلا يأس ، تطلع اليها ضحك ، ثم أخذ يحبو على يديه وركبتيه مقتربا منها ، تشبث بفستانها فرفعته فوق ركبتيها ، داعبته تحت ابطه بأصابعها فضحك .

ضحك حسين لضحكه ، ثم نظر طويلا ، همس لنفسه فى أسى : " لو رأتك خالتك مديحة الآن لألقت بك من الشرفة " .

* * *

دقت ساعة الحائط معلنة التاسعة ، انشغل حسين بنشرة الأخبار ، كانت ليلى قد انتهت لتوها من تغيير ملابس سمير التى اتسخت ، وقفت فاطمة تداعب سمير وهى تسأل حسين :

— ماذا تريد على الغداء ؟

رد فى اقتضاب :

— أى شىء

جاء صراخ جرس الباب عاليا ، توقفت أنفاس الجميع فمازال الوقت مبكرا ، بدا شىء من الانزعاج فى ترقب الخادمة التى هرولت لتفتح ، عادت ووقفت بباب الحجرة قائلة :

— سيدى عصمت بيه

أسرعت ليلى وسمير بين يديها تستقبل زوجها :

— بابا ، بابا ياسمير

تلقى عصمت ابنه بين ذراعيه وقبله ، دخل الى الحجرة صافح فاطمة ، وشد على يد حسين محييا فى انشراح :

— كيف حالك ياحماى العزيز ؟

— بخير ياعصمت ، اجلس

القى عصمت بسمير بين ذراعى أمه بعد أن أعاد تقبيله فى نهم ، قال فى سرور وابنه يحدق فيه النظر :

— متى تعود لبابا ياولد ، وحشتنى يا مضروب

استوى عصمت جالسا وهو يسأل حسين عن أحواله ، عن صحته ، أخذ يفتش فى جيوبه حتى عثر على قطعة من الشيكولاته القى بها فى حجر زوجته :

— أكليها لـه

ضحكت ليلى قائلة :

— سيأكلها وحده

قدمتها الى سمير الذى انشغل بمحاولة فض غلافها وهو يتطلع الى وجه أبيه بين الفينة والفينة ، وفى براءة ٠

قالت ليلى مستفسرة :

ـ ماذا أخرك ؟

وعقب حسين :

ـ انتظرناك أمس على العشاء ، ماذا أخرك ؟

رد عصمت وهو يقدم سيجارة لحسين :

ـ كنت مشغولا ٠

ثم اتجه بكامل وجهه الى حسين مردفا :

ـ انت تعرف موضوع قطعة الأرض٠

سأل حسين فى اهتمام :

ـ ألم ينته الموضوع ؟

رد عصمت :

ـ لم نصل الى اتفاق بخصوص الثمن٠

ـ كيف ؟

قال عصمت وهو يريح ظهره الى مسند الظهر وبعض الأفكـــار تطوف بذهنه ، تظهر على وجهه فى شكل تقضيبة فى جبهته :

ـ مازال مصرا على الثمانين ألفا ٠

اعتمد حسين هو الآخر بذراعيه على جانبى المقعد وقال :

ـ أعرف الرجل ، كل الرؤوس الصلعاء صلبة٠

وعقب ضاحكا :

ـ وهو أصلح٠

قال عصمت وهو يرد ضحكة حسين بابتسامة رقيقة :

ـ انه فعلا كذلك ، عرضت عليه ستين ألفا ورفض ، هددته فى المرة الأخيرة بصرف النظر٠

تناول حسين الولاعة التى قدمها اليه عصمت وأشعل سيجارته ، انصت وعصمت يستطرد قائلا :

— لا أحب المساومة ، أجدنى فى اضطرار الى صرف النظر .

قال حسين بشئ من الدهشة الممزوجة بالاهتمام :

— خسارة ، خسارة أن تضيع قطعة الأرض .. أتوقع أن تصبح الأرض أقيم من الذهب ..

نفث دخان سيجارته وتابع الدخان متفكرا ، قال بغتة :

— ما رأيك ؟

اتسعت حدقتا عصمت فى تساؤل .. أردف حسين :

— لو تقدمت اليه بعرض آخر .

أشاح عصمت بكلتا يديه :

— لا .. لا أفكر حاليا على الأقل ، الأمور غير مستقرة ..

— أقصد أنا .. أتقدم أنا له بعرض آخر ، أستطيع مساومته ، ثم نقتسم سويا الأرض .

— اذا كان الأمر كذلك ليس لدى أى مانع ، أنت قادر على المساومة ، لديك الصبر ، اتفق وأنا مستعد لتوقيع العقد .

وضعت الخادمة صينية القهوة بينهما ، قال حسين مستفسرا :

— هل تناولت افطارك ياعصمت ؟

رد عصمت وهو يداعب سمير بعينيه :

— الحمد لله

انشغل عصمت بمداعبة سمير ، أخذ يصفر له بفمه ، سمير يضع قطعة الشيكولاته فى فمه ثم يخرجها ، تلوثت يداه ، مسح على وجنتيه ، قال عصمت وهو ينفض رماد سيجارته :

— الولد وسخ نفسه ..

أمسكت ليلى بيد سمير غاضبة :

— كده ياسمير .. حرام عليك .

قال عصمت وهو ينظر الى ساعة يده :

— أما زالت روحية نائمة ؟

خيم على الجميع صمت مريب ، قطعته ليلى قائلة :

— كنت على وشك الاتصال بك ، خشيت ازعاجك ، بالأمس تعبت ونقلناها الى الفراش .

قال عصمت مبديا بعض التألم :

— والآن ، كيف حالها ؟ ، ارجو أن تكون فى خير ..

قال حسين باسطا راحتيه أمام عينيه :

— أتعشم ذلك ، أخشى أن يكون الداء ....

قاطعته فاطمة فى حماس :

— كفى الله الشر ياشيخ ، لا تكن متشائما ، وعكة بسيطة ..

— لست متشائما يافاطمة ، أتمنى أن تخيب كل ظنونى .. ولا يمسسها أى ضر ..

نهض عصمت ، مسح بيده على شعره ، تأكد من سلامة هندامه ، صافح حسين هامسا :

— اتفقنا ، لكن لا تتباطأ ..

حملق حسين فى السقف برهة ثم قال :

— انشاء الله بعد غد سأذهب اليه ..

ثم عقب :

— لكن لا تقلق ..

صافح عصمت فاطمة ، قالت ليلى وهى تودعه صوب الباب :

— هل ينقصك شىء ؟

أجاب عصمت بسؤال ضاحكا :

— متى تعودين ؟ ، البيت مظلم بدونك والولد الشقى ..

امسك يد سمير وقبلها فى عنف ، قرصه من وجنته :

— وحشت بابا شقاوتك ياطعم ..

سأل عصمت ثانية :

— هه ، متى ؟

— غدا أو بعد غد عندما تعود روحية لطبيعتها ..

أخذت ليلى تقبل سمير ، وهى تسرع ناحية الشرفة ، وقفت تودع زوجها حتى استقل سيارته ولوح لهما بذراعه ، وقف حسين تغمره السعادة ينظر اليهما ، لكن سعادته لم تكتمل اذ سرعان ما تذكر روحية وتأخره فى الدخول اليها للاطمئنان .

* * *



فركت روحية عينيها ، تطلعت الى نافذة الحجرة ، الستائر المخملية يبد و لونها زاهيا ، تابعت أشعة الشمس وهي تخترق زجاج النافذة وتسقط فوق السجادة ، أنحت الستارة وتابعت الغبار ، أعجبتها سباحته فى خطوط الشمس الذهبية كأسلاك من الحرير ، مستقيمة متوازية ، لا انحناء ولا تكسر ، كان يخيل لها أحيانا أن بامكان الغبار فى يوم عاصف أن يعوق هذه الخيوط عن الوصول الى الأرض ، لكنها باستمرار المشاهدة والمراقبة للشمس ولخيوطها لم تشهد هذا ، تمنت كثيرا لوكانت حياة الانسان بلا انحناء ولا تكسر ، اذن لعاشت حياتها كما ينبغى ، لعاشت كما بدأتها أول مرة بداية حسنة ، وما أكثر الأيام التى تمنت فيها هذه الأمنية الصعبة ، كلما استيقظت فى الشتاء مبكرة ، تغادر فراشها ، تغسل وجهها ، تصلح زينتها ، تحكم حول جسدها الروب الصوفى الثقيل ، تجلس فى الشرفة تحت أشعة الشمس تنعم بالدفء ، فى الصيف تستقبل الشمس مع مطلعها وقبل أن تشتد حرارتها ، تتنسم هواء الصباح المنعش ، تتفتح شهيتها فتتناول افطارها باستمتاع.

افتقدت روحية كثيرا هذه الأيام السعيدة ، تنبهت لنفسها ، وقفت وهى تشعر بتكاسل لذيذ ، ووخيم ، ودت العودة الى النوم ، نظرت الى الفراش والملاءة ملقاة فى اهمال ، لكنها فى بطء اتجهت ناحية باب الحجرة واخترقت الصالة ، وقفت بباب حجرة المعيشة ، تطلعوا جميعا نحوها ، القت التحية ، خف اليها حسين واحتضن فى كفيه يديها قائلا :

ــ حمدا لله على سلامتك يا أختى ..

ــ الله يسلمك يا حسين.

لم يترك يدها الا بعدما أجلسها فى مقعدها ، تساءلت روحية :

ــ ألم يتصل عاطف يا حسين ؟

لمحت التردد على وجهه فأردفت :

ـ لا أظن ..

قال حسين فى اضطراب :

ـ يبدو أن سوء الأحوال الجوية هناك لم يمكنه..

ثم استطرد أكثر تماسكا :

ـ قرأت فى الجريدة أن بعض الطائرات غيرت اتجاهها لتعذر الهبوط فى مطار موسكو..

ثم فى اطمئنان :

ـ لا عليك ، سيتصل بالتأكيد حينما تتحسن الأحوال..

ألقت روحية بظهرها الى المسند وتنهدت :

ـ آه ..

رمق حسين الجريدة بنظرة متلصصة ، خشى أن تمد روحية يدها وتتناولها ، تكتشف كذبته ، ابتلع ريقه وهى تنصرف الى ليلى متسائلة :

ـ ألم يحضر زوجك ؟ ، ألم يتصل بك ؟

قالت ليلى مبتسمة :

ـ كان هنا ، يهديك تحياته ، كان مشغولا بالأمس .

ـ كان ينبغى أن يعتذر بالتليفون حتى لا تقلقى .

ابتسمت ليلى ابتسامة عريضة وقالت :

ـ أنا لا أقلق .. اعتدت مشاغله ، التمس له العذر .

قالت روحية وصورة الدكتور مصطفى تلوح أمام عينيها مغلفة بالضباب :

ـ يالك من طيبة ، انه رجل ..

ردت ليلى فى ثقة واعتداد بالنفس :

ـ ثقتى فيه بلا حدود .

شردت روحية بعينيها ناحية الشرفة ، تابعت صورة مصطفـــى وهى تتقشع ، رأته يهبط من الطائرة متأبطا ذراع زوجته الشقراء ، أفلت لسانها فى صوت تدرج حتى الخفوت:

ـ كنت مثلك ، وخان الثقة.

ثم هزت رأسها ، نظرت الى حسين أدرك فى التـو واللحظة أن السؤال التالى سيوجه اليه فعاجلها قائلا :

ـ طلبت اليوم أجازة بالتليفون.

انتقلت روحية الى الحديث عن عاطف ، وبعد برهة قالت :

ـ اعتقد أنه سيتصل بى اليوم ، انه يعرف كم أنا مشغولة ! !

قال حسين منساقا مع رغبتها :

ـ بالتأكيد ، بمجرد أن تتحسن الأحوال..

قالت روحية وهى تهم واقفة :

ـ الأحوال.. الأحوال ، الكل يتحدث عن تحسن الأحوال ، لا أدرى لماذا ؟ ، هل هناك شىء غير روتينى.. ؟

قال حسين وهو يتجه وراءها الى الشرفة :

ـ الأمور كلها ليست على ما يرام..

حدقت روحية فى وجه حسين برهة ثم قالت:

ـ حسين ، هل تظن عصمت يتلاعب ب...

قاطعها حسين مندهشا :

ـ عصمت.. لا ياروحية ، عصمت لا يهتم الا بتنمية رأس مالــه، واغتنام أى فرصة فيها مكسب ، والمصنع يأخذ معظم وقته..

قالت وهى تطلب من فاطمة كرسيا :

ـ المفروض أن تضع ليلى عقلها فى رأسها ، و...

سكتت وفاطمة تضع الكرسى ، جلست ثم قالت :

ـ الرجال كما تعرف لهم مئات العيون..

قال حسين ضاحكا :

ـ والعين تعشق قبل القلب ..

ضحكت روحية ، واستغرقت فى الضحك ، ثم اتجهت بكامل وجهها الى الطريق تشهد المارة ، وتتابع السيارات.

* * *

بحكم العادة استيقظت روحية متأخرة هذا الصباح ، شعرت بآلام صداع حاد فى الرأس ، فقدان كامل للسيطرة على الأعصاب وخمول يحاول اعادتها ثانية الى الرقاد ، شعرت بجسدها مفككا كأن أعضاءه فقدت وظيفتها ، لاتهتم بمطالعة صحف الصباح ، ولا بسماع المذياع ، لا تشعر بأى حب للحياة ، جلست فى الشرفة تتناول كوب اللبن الذى قدمته لها فاطمة بلا شهية ، تشعر بمذاقه مرا على طرف لسانها ، تشعر بانقباض فى قلبها ، وضيق فى صدرها ، حنق فى خلقها ، تدفعها رغبة ملحة للانفراد بنفسها ، سألت حسين بغتة :

- فى أى يوم نحن ؟
- الاثنين ..

قالها حسين وتضاربت فى رأسه الذكريات ، عجب أن يأتى هذا اليوم متفقا مع انشغالها لعدم اتصال عاطف بها ،كاد يضحك من سخرية الأقدار ، أو تحديها للبشر ، كاد يبكى وهو يتذكر مأساة ذلك اليوم الحزين ، الذى امتدت ظلاله حتى اليوم ، ولا أمل فى أن تنقشع ، أمسك بيد روحية وقال :

- أتركك فى رعاية الله يا أختاه .. اننى ذاهب الى العمل ..
- مع ألف سلامة يا حسين .

شردت روحية الى الماضى تنظر بعين حزينة ، تربط خيوطه بالحاضر ، تتحول الخيوط الى جسم نابض بالحياة ، جسم حى يشعر ويتألم ، يحيا ويتنفس ، يتجسم أمامها تعقد الخيوط وهى التى عقدتها ، تتحرك كجبل حزن هائل ، أو نهر يبدو ممتلئا بالخوف الدائم .

منذ سنوات ، هبت من رقادها مذعورة على صوت المدافع يدوى فى السماء ، صوت الطائرات المغيرة يخترق الجدران ويصم الآذان ، تخرج فزعة مهرولة الى الصالة لتتلقى الأنباء من المذياع ، كانت تعرف كل المقدمات التى سبقت هذا الصباح ، لكنها لم

تدرك أن شبح الحرب على الأبواب ، قرأت في الصحف عن تحركات الجيش الى مواقع جديدة له في سيناء ، سمعت أمر القيادة بطلب رحيل قوات الطوارئ عن أرض الوطن ، شاهدت في التليفزيون العديد من المؤتمرات على جبهة القتال مع الضباط والجنود ، تناقلت وكالات الأنباء أخبار الحشود الهائلة ، أسقط الأمر في يدها وهي تستمع الى قيام العدو بالعدوان على الجيش المصري ، اعتراها خوفا هائلا سيطر على مشاعرها ، غشى قلبها اضطراب جمد الأطراف جميعها ، عادت الى الفراش والمذياع الصغير في يدها وضعته على الوسادة تستمع الى دقات طبول الحرب ، والموسيقى العسكرية.

كانت روحية تتابع الأنباء ، تستمع الى نشرات الأخبار ، تطالع الصحف ، تشارك في كل حديث يدور عن السياسة والحرب ، تقول رأيها في تأزم الموقف ، لم يكن ذلك الاهتمام لتملأ به الفراغ ، وانما لأن ابنها جمال نسرا من نسور الجو.

تذكر الأحاديث الشيقة التي كانت تدور بين جمال وخاله حسين وبينها ، والمجادلات العنيفة التي كانت تدور رحاها في صالون البيت بين جمال وأصحابه ، كان الحدث الهام والذي امتد النقاش حوله لسنوات هو مساندة ثورة اليمن ، تتابع روحية أحداث تلك الثورة ، تهتم بالمحاولات التي تبذل للقضاء على فلول بعض الرجعيين كما أطلقت عليهم أجهزة الاعلام ، تتمنى ككل الناس نجاح الثورة ، يعود جمال اليها فرحا مغتبطا بمهارته بعد آداء مهمة من مهماته ، كان يسوؤها معظم الأحيان ما يجئ في أحاديثه لكنها كانت — أولا وأخيرا — تحمد الله على سلامته ، تكتفي فرحة بالانصات اليه ولا تعلق الا اذا كان حسين موجودا ، فحين يعلن تذمره تبدأ المجادلات ، ويحتد النقاش بين حسين ، وابنها جمال لاختلافهما في وجهات النظر.

كانت — على طول الخط — مقتنعة بآراء جمال حول مساندة

ثورة اليمن ، تنظر بحنان الأم الى طفلها الصغير وهو يضرب عصفورا صغيرا بنبلته فيسقطه جريحا ، لا ترى فى ذلك اجراما ، تغتبط وصغيرها يحاول اقناع خاله بأهمية هذه المساندة للقومية العربية ، تراه ولدا شقيا لم يكبر بعد رغم اعتماد الدولة عليه كطيار من أمهر طياريها ، فجمال فى عينيها صغيرا ساذجا مهما كبر ، وتستمع له كلما أدى مهمة يقول :

— قضيناعلى عدد هائل من أعداء الثورة ، مسحنا الأرض بكل ما عليها ، ألقينا أطنانا من القنابل و٠٠

تثور ثائرة خاله :

— اجرام ، أنتم مجرمون ، أليسوا يمنيون؟ ، كل ذنبهم أنهم غير مؤيدين للثورة٠

تقول روحية معضدة رأى حسين :

— صحيح ياجمال ، لماذا لا تكون ثورتهم مثل ثورتنا ، هل الشعب غير مؤيد حقيقة للثورة؟

— الشعب مؤيد ياماما ، فئة قليلة صاحبة مصلحة هى التى تناهض ، لا تهمنا حياة هذه الفئة٠

ينبذ حسين فكرة اراقة الدماء لشعب آمن ، يحتد النقاش وجمال يقول :

— ثورتنا تحارب الاستعمار أينما كان٠٠

يضحك حسين فى سخريةقائلا :

— حتى ولو فى الكونغو٠٠

ثم يقول فى بطء :

— دعك من هذه القشور ، الحقيقة كما يتداولها الناس هى أننا لا ٠٠ اقصد القادة ، اقصد أن للعملية هدف آخر٠٠

ثم يشعل سيجارة ، يقول جمال :

— كل أهدافنا وطنية٠٠

— وهل التخلص من القادة وطنية ، هل ابعادهم عن مسرح

الأحداث هنا وطنية٠٠؟

يقول جمال :

ـ دعك ياخالى من الشائعات ، ذهبنا الى اليمن لآداء واجب قومى من الدرجة الأولى ، اننا نعد أنفسنا لمحاربة اسرائيل ، لن يتسنى ذلك الا بعد تحرر الوطن كله من الاستعمار٠٠

يثور حسين ويعلن فى سخرية :

ـ عمل قومى ياجمال ، معك حق ، الأبواق مسلطة على آذانكم ، مصيبتنا ياولدى اننا نكذب ونكذب حتى نصدق كذبنا ، العمل القومى ياولدى مع اسرائيل ، اسرائيل فى فلسطين ، ليست فى اليمن ، نحن ـ خيبنا الله ـ نساعدها بطريقة أو بأخرى ، نستنزف جهودنا وأسلحتنا فى أمور ، أقل ما يقال عنها أنها استعراض عضلات زائف ، قل لى ياجمال ، كم مصرى ماتوا فى هذه الحرب؟ ، عشرة آلاف ، مائة ألف ، مليون ، وكم يمنى مات ، نفس العدد ، الم يكن من الأجدر بنا كعرب أن يموتوا على جبهة فلسطين ؟ حربنا المقدسة مع اسرائيل ، العمل القومى الحقيقى ، اما مساندة ثورة ، وبهذه الطريقة اسمح لى أن أقول انها اجرام٠

خرجت ضحكته من تحت الضروس :

ـ أتعرف ما يقوله اليمنيون عنا ؟ يقولون أننا فراعنة٠

قال جمال فى هدوء :

ـ سمعت ذلك٠٠

تشهد روحية الحوار بقلب منشرح ، طفلها كبر ونضج ويتكلم بلسان الرجال ، لم يعد صغيرا ، ولا ساذجا ، بل رجلا بمعنى الكلمة الفصيح ، تعود الى متابعة الحوار٠

ـ اننا ياخالى نتأهب ليوم فاصل بيننا وبين اسرائيل٠٠ نحن فى انتظار هذا اليوم٠٠

يضحك حسين ويقول فى شئ من السخرية :
ـ لالقائها فى البحر ..

يقول جمال فى جدية :
ـ ليس ذلك بمستحيل ..

يعقب حسين مند هشا :
ـ لا فائدة ، عقدة القادة انتقلت للجيش..

يقول جمال بأمل :
ـ ستكون الأمة العربية كلها صفا واحدا فى الحرب..

مرة أخرى يثور حسين :
ـ أى أمة ، الأمة التى تدبر لد ولها المؤامرات ، كل الـدول العربية مع الأسف تتمنى اندحار بلدك ، هانحن فى موقف أتعرفه ؟

يتساءل جمال فى دهشة :
ـ أى موقف ؟
ـ ألم تسمع الضجة ؟ ، المؤتمرات فى سيناء ، التهديدات ، الأمر بسحب قوات الطوارئ ، هل معنى هذه الضجـة أننـا مستعدون للحرب ؟

يقول جمال بشهية :
ـ غاية الاستعداد ..

يشير اليه حسين بيده :
ـ وها هو الدليل ..

يتلفت جمال حوله ويتساءل :
ـ أى دليل ؟
ـ وجودك هنا ياأخى .. ماذا لوضربتنا اسرائيل فى هـذه اللحظة ؟

ثم يستطرد فى استياء :

— يبدو أننا نسينا هزيمتنا فى ٤٨ ، ٥٦

قال جمال فى حماس :

— كان للهزيمة أسباب ، أما الآن فنحن أقوى جيش فى الشرق وسنهزمها هذه المرة ..

علق حسين ساخرا :

— وسنلقى بها فى البحر ..

يقول جمال فى بطء :

— يكفى اطمئناننا أن أكبر دولة فى العالم تساندنا ..

يبتسم حسين ابتسامة مرة ويقول :

— خيال يا ولدى ، خيل وكلما يثمره الخيال خيال ، هل تظن انه فى الامكان محو دولة من فوق الخريطة ؟ أنا لا أظن كما لا أظن أن دولة مثل روسيا ذاقت مرارة الحروب تــزج بنفسها فى حرب من أجل سواد عيوننا ..

يستسلم جمال فى يأس قائلا :

— انت لا تقتنع أبدا ياخالى ..

يرد حسين فى شىء من الحدة :

— لا أقتنع بالخطأ طبعا ، ولا أقبل الباطل ، كم كانت تكلفنا أول وحدة فى التاريخ ، ثم أفلست ، كم كلفتنا مساندة دول دعمنا ثوراتها وكافأتنـــــا بهز الأكتاف ، والبيانات التى لا تساوى قيمة الورق الذى تكتب عليه ، فى الوقت الحالى كل تكلفنا حرب اليمن ، مليون جنيه حسب ما سمعت ..

— تدفعها روسيا ..

يقف حسين ويقول متبرما :

— آه ياخوفى من عشق الروس لمنطقتنا ..

لا ينته الصراع بين جمال وحسين كلما التقيا ، وكلما التقيا بالضرورة يتطرق الحديث الى السياسة أو الجيش ، تشعر روحيـة

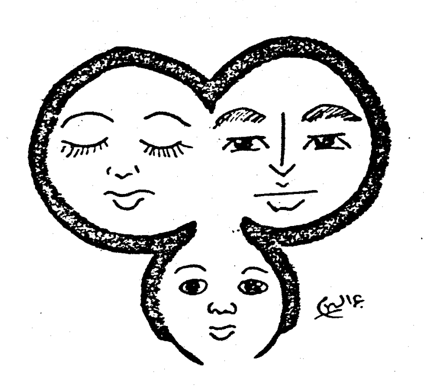
بالسرور العظيم ، فهى تتعلم وتفهم ، تضيف الى ما تقرأه فى الصحف ، وما تسمعه فى الاذاعة المرئية والمسموعة ، تزداد وعيا وثقافة ، تزداد غبطة وهى ترى جمال طفل الأمس فى مناقشاته وفى بزته العسكرية رجلا يلقى على كاهله المهام ، طفل الأمس الذى أرضعته ، وسهرت على رعايته ، يحيطها بكل التقديس والحب والاحترام ، يضع فوق صدرها الزهور التى لا تذبل أبدا ، تداعبه وتحاول اعادته الى طفولته بذكر شقاوته فيقول ضاحكا :

— خلاص كبرت ياماما ، كبرت والله ..

ويضحك فى براءة ، يلقى بالنكات المهذبة فى مرح ، يزيل آثار عبوس خاله من المناقشات بمزحة ، هو قرة عينيها ، الهواء الذى تتنفسه ، الطعام الشهى الذى تأكله ، ماء الحياة الذى تعب منه كل يوم ما يجعلها تستمر فى الحياة برغبة ، يثرى عروقها ، يملأ عروقها بالدم المتجدد ، تحبه ، لاتنسى أبدا تشبثه بهايوم عاد والده من أوربا ، يوم تركها الأصغر والأولى أن يتشبث بها ، لا تنسى صراخه :

— ماما .. ماما ..

* * *



ابتسمت روحية وهى تهز رأسها لتفيق من الذكريات، اتسعت حدقتاها ، وقد مرت بها المحنة ، لم تمت ، ها هى على قيد الحياة تنتظر صوت عاطف ، تطلعت الى الشارع ترقب الصبية يلعبون ، بعض الباعة الجائلين يعبرون الشارع ينادون بأصوات متباينة على بضائعهم ٠٠

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة عندما دخلت الخادمة تخبرها بوصول الدكتور رفعت ، قامت لتكون فى استقباله أثناء دخوله الحجرة ، قادته بالترحيب الى مقعده المفضل ، شعر الدكتور وهو يشد على يدها بالدفء ، قال مهنئا :

— حمدا لله على السلامة

— أشكرك يادكتور ، أسبب لك التعب دائما ٠٠

— ياستى ، لا يهم ، المهم أن تكونى فى صحة جيدة ٠٠

استوى الدكتور رفعت جالسا وهو يرسم على شفتيه ابتسامة عريضة اعتاد رسمها كلما التقيا ، رغم ما يعتمل فى نفسه من هم وحزن ، كلما رآها تذكر تعلقه بها ، ورفضها الزواج منه ، كان يأمل ذات يوم أن تكون رفيقة رحلته ، لكنها أبت ، تضع أمومتها حائلا بينها وبين تحقيق تلك الفكرة ، قال وهو يبدى دفء حنانه :

— قلت مرارا لا تشغلى تفكيرك أكثر من اللازم ٠٠

قالت فى خجل :

— غصب عنى ، لم يكلمنى عاطف فى موعده ٠٠

انصت باهتمام الى رقة صوتها ، استمتع بنغمة طالما استمع اليها وأشجته ، قال :

— الغائب عذره معه ، جائز أنه لم يتمكن ، لماذا تمتلكك هذه الحساسية المفرطة ؟

قالت فى أسى :

— جمال غاب بلا حجة ٠٠

ـ كفى عن هذا ياروحية٠٠

أخرجها صوته ونداءه لها دون كلفة من شرودها ، وأساهـا ، نظرت اليه فأسقط نظراته الى الأرض وقال مستدركا :

ـ آسف يامدام ، آسف لكنك ترجعين بى الى الماضى بحزنك

ابتسمت قائلة :

ـ وهل تظن الماضى انتهى ؟ اننى أعيشه كحاضر ومستقبـل ، طالما آثار الهزيمة موجودة ، وطالما ٠٠٠

شرد ذهن الدكتور وقال بلا وعى :

ـ بالنسبة لى انتهى منذ قلت لا ٠٠

أدركت روحية سر شروده ، فهمت ما يعنيه ، قالت متصنعــة الابتسام هذه المرة وذهنها يعانى التوتر والاضطراب :

ـ تزوجت وتبدو سعيدا ٠٠

زم شفتيه ، قال فى أسى :

ـ آمل أن أكون كذلك ٠٠

ثم نهض مستأذنا ، قال وهو يسلك طريقه الى الباب :

ـ جئت لأطمئن عليك ، تحياتى للأستاذ حسين ٠٠

شيعته حتى الباب ، عادت الى الشرفة تتابعه بعينيهـا ، بلغ سيارته وانطلق بها ٠٠

تنهدت وهى تعاود الجلوس ، شعرت بنوع مـن التأنيـب يغزو فكرها لأول مرة ، الدكتور رفعت طيب القلب ، دمث الخلق، رقيق الحاشية ، شعرت بأنها كانت قاسية يوم حكمت علـى أمله بالموت ، يوم همس لها طالبا الموافقة على الزواج ، قالـت لا ، رغم ذلك كان ـ ومازال ـ حانيا عطوفا ، تحملت لوم حسين وليلى ومديحة ، لم يكن أمامها أثناء محنتها بفقد جمال شيئا تفكر فيـه أو تتكلم عنه ، أو تحب الحديث فيه الا ابنها ، كان مستحيـلا وهى فى مثل هذه الظروف أن تفكر فى الزواج ، بعد عام أو اكثـر

رفضت أيضا ، حيث طفت على السطح ذكرى تخلى الدكتور مصطفى عنها بالزواج من أخرى ..

كم ودت الانفصال عن الماضى لتعيش حياتها ، لكنها لم تستطع ، حين تخلى عنها الدكتور مصطفى ، كرست حياتها كلها لابنها جمال ، وحين تخلى عنها جمال باستشهاده أو فقده ، أو وقوعه فى الأسر ، أ ....

وتوقفت روحية ، اهتزت فوق مقعدها ، تقافزت الدقات فى قلبها ، تدعم ايمانها بأن جمال حى يرزق ، بأنه قد وقع فى الأسر ، أجل ، جمال أسير عند الأعداء ، ودت أن تعلن اكتشافها للجميع ، هبت واقفة ثم تراجعت وألقت بجسدها ثانية فوق المقعد ..

صمت كل شئ فجأة ، حتى النبضات خفت صوت ضرباتها ، منذ سنوات طويلة وهى تسبب للبيت آلاما لا تطاق ، القلوب أجمعت على حبها ، ولم تقدر هذا الحب ، انهالت باللوم العنيف على نفسها المتمردة ، أحست بالرغبة فى خلع رداء المثالية فى الأمومة ، وفى الحزن ، أحست بالرغبة فى الاندماج الكامل فى الحياة ، ايمانها راسخ بأنها لا يمكن أن تتخلص من الماضى ، لكن شعاع اليوم يدفعها الى أن تندفع الى المستقبل ، متخذة من الماضى عبرة ، أحست فجأة بأنها ، وبسبب حبها الفذ والمتهور لجمال قد ظلمت عاطف ، ظلمته يوم انتزعته من أبيه حيث ارتاح للعيش معه ، تذكر يوم بذل حسين مساعيه ومعه الدكتور رفعت ونجحا فى احضار عاطف ليخفف عنها فقد أخيه ، وقف طويلا الدكتور مصطفى ضد رغبتها ، اذ كان قد رتب لعاطف حياته ، رسم مستقبله ، واختار له الفتاة التى تشاركه حياته ، أما عاطف نفسه فكان مترددا بين القبول والرفض رغم توسلاتها اليه.

بدأ عاطف موزعا بينها وبين أبيه ، يوم معها ويوم معه ، ثم

يومان معها ويومين مع أبيه ، أسبغت عليه الكثير من الحنـان الذى اجتذبه ، فكر فى مقاسمتها الحياة ، أدرك أنه فقد هذا الحنان فى وقت كان فى احتياج اليه ، اكتشف أن بريق فرنجة زوجة أبيه هو الذى جذبه صغيرا ، ولغة ابنتها من زواجها السابق على أبيه هى التى سيطرت لفترة طويلة على أفكاره ، أخيرا اكتشف العواطف ، أحس بسخاء أمومة أمه ، ووفرة حبها .

بين الحين والحين ، كان يحس عاطف بأن أحاسيس أمه محزونة ، رأى فيها أحيانا استمالة ، أو تصنع ، لكنه فى أحيان كثيرة شعر بلمسات الحنان الخالص ، والحب النقى الطاهر ، وجد فيها أما له فى معظم الأحيان ، وتنأى به بعيدا عنها كلما شبهته بأخيه جمال .

منذ اليوم الأول الذى استقر فيه عاطف معها رسمت روحية خطتها ، وعملت على استبقائه الى جوارها حتى الموت .

* * *

اشـتدت حرارة الصيف ، النسمات الرطبة عزيزة المنال ، فى الشارع حياة تعج بالبشر ، استلقت روحية على الفراش ، تطلب النوم ، الضجيج يرتفع مع الهواء ليندفع الى حجرتها ، يطـن فى أذنيها أشبه بأزيز محركات الطائرات ، صوت عجـلات المترو فى احتكاكها بالقضبان يرتفع كصوت مروحة ضخمة ، صوت آمر يصيح :

ـ الرائد طيار جمال مصطفى

ـ افندم

ـ جاهز

ـ تمام يا افندم

تتحرك الطائرة لتهجر موقعها ، تصعد الى السماء ، تأخـذ مسارها نحو جبهة القتال تحمل الذخيرة ، والمؤونة من طعـام ، ملبس ، ماء ، بنزين ، أدوية ، يتصـدى لها سرب من طائرات العدو ، يحيطون بها ، يمطرونها بوابل من رصاصات رشاشتهم ، يصرخ جمال طالبا النجدة من قيادته ، ترد عليه :

ـ حاول العودة ، اهبط فى أى مطار ، مطارنا ضرب ٠٠

يصرخ جمال وهو يتلقى ضربات العدو من أسفل ، وطائـرات من أعلى :

ـ لا أستطيع الاستمرار ، من تحتى المدفعية ، وفوقى الطائرات

ـ تصرف ٠٠

وانقطع الاتصال ٠٠ يترك جمال وزملائه الطائرة ، يقفـزون بالمظلات ، الطائرة تهوى محترقة ، العرق يغشى عينى جمـال ، يفقد الرؤيا والهواء يأرجحه بمظلته ، يهبط الى الأرض ، قبل أن يفيق يفاجأ بشرذمة من جنود الأعداء يحيطون به ، يلكزه أحدهـم فى جانبه ويضحك ساخرا :

ـ هه ، طيار ، طيار مصرى ٠٠

يأمر رجاله :

ـ خذوه ٠٠ سيفيدنا بقاءه معنا ٠٠

تقوم الزوابع فى الصحراء الشاسعة ، يملأ الهواء غبـــار أســود يربط ما بين السماء والأرض ، تصفر الرياح ويتقلب لون الشمس ، تبدو الأطياف وكأنها تتعانق مع لهيب المعركة المتصاعد الـــى السماء ، تتطاير الرمال لتهدم كثبان وتشيد أخرى غيرها ، اللهب المتصاعد من الرمال يتموج لونه تحت أشعة الشمس الذهبية ، رجل يبدو شريدا يرتدى أسمالا ممزقة ، تظهر عريا كثيرا من جسد ما لأسود بلون الطين يمشى مترنحا ، يسقط ويقوم ، يمشى ، يسقط ثانية ، لحظات يقبض بيده على حفنة من الرمال ، شعره الطويل ممتلىء بالغبار ، تحـول الى مشيب ، يحاول النهوض ، يمشى ، شفتاه من الظمأ مشققتـان تلوح على مبعدة نقطة ماء تبرق تحت أشعة الشمس ، يستمد من ضعفه وهزاله قوة ، يجرى ، يتراءى لها جمال فى بزته المهلهلة ، يجـرى ولسانه خارج فمه ، بعض جنود الأعداء حول بحيرة صغيرة يتبادلون الحديث :

— ذق هذه المياه؟

يغرف أحدهم ملء راحتيه ويتذوق :

— عذبة ..
— ضع بها السم .. غدا يتناثر حولها المصريون كالذباب ..

الجسد الراقد فى الفراش يرفع ذراعيه ، صراخ يندفـع الى أذنين لا تعيان ، يتقطب الوجه ، تبدو عليه دهشة ، تصـرخ والصوت مكتوم :

— الماء مسموم ، ابتعد ، ابتعد ياجمال ..

يسرع فى الاقتراب أكثر ، يتوقف حزينا ، تميل رأســه فوق صدره ، يتنهد الجسد الراقد فى ارتياح ، تقول هامسة :

— جمال ياولدى ، ألا تعرف طريق العودة؟
— تائه ياأماه ..
— اهتد بالنجم ياولدى ، امشى ليلا لتصل سالما ، ابتعد عن عيونهم ،

— [illegible] يا أماه ٠٠

تتقلب المناظر أمام العين المغلقة تحت الأهداب المسدلة ، مناظر مستقيمة واخرى مقلوبة ، جنود ومواقع ، جبال وهضاب ومياه ، دبابات ومدافع ، عربات ، قنابل ومتفجرات ، اطلال ، قتلى ، جرحى ، مستشفى ، مرضى ، أطباء ، جمال يطل برأسه من قلب هذه اللوحات المتعاقبة قائلا فى غبطة :

— أمى ، عدت يا أمى ٠٠ عدت ٠٠

تصرخ عاليا :

— جمال ، ابنى ، حبيبى ٠٠

وقفت فاطمة فوق رأس روحية بعد أن هرولت على صراخها ، عقدت الدهشة لسانها وربطته ، لم تستطع التفوه بكلمة ، تشهد وجه روحية غارقا فى الدموع ، تتقبض أساريره تارة وتنفرج ، شفتاها تمتصان الدموع لتذرف مآقيها دموعا أخرى ، أفاقت فاطمة وتحرر لسانها من عقاله ، هزتها برفق :

— روحية ٠٠ روحية ٠٠

هبت روحية نصف جالسة تتلفت حولها ، تطلعت الى وجه فاطمة وقالت كالتائهة :

— أين جمال ؟ ، جمال كان معى

ثم أجهشت ببكاء :

— كان معى يا فاطمه ٠٠

— هونى عليك يا حبيبتى ٠٠

أسقطت روحية وجهها بين كفيها :

— رأيته يا فاطمه ، جمال تائه فى الصحراء ، جمال حى ٠٠

ابتسمت وهى تغير دفة الحديث ، أخرجت برقية من جيبها قائلة :

— ها هو عاطف يعود اليك ٠٠ كنت تحلمين بعاطف ٠٠

اختطفت روحية البرقية وأخذت تقرأها فى لهفة :
— عاطف ٠٠

ضمتها الى صدرها ، رفعتها الى شفتيها وقبلتها مرددة :
— غير معقول ، غير معقول يا حبيبى ٠٠

قامت روحية من فراشها زائطة ، احتضنت فاطمة وقبلتها ، من محن الزمن تعودت أن تفرح وتفرح من حولها ، قالت وهى تبحث عن الشبشب :
— هل قرأها حسين ؟
— نعم ، سنذهب جميعا لاستقباله ٠٠

خرجت روحية من الحجرة مهللة تقول :
— سيعود عاطف يا ولاد ، سيعود حبيبى ٠٠

التفتت الى فاطمه وسألتها :
— كم الساعة ؟
— الرابعة ٠٠ أمامنا ست ساعات ٠٠
— ياه ، ست ساعات كاملة ٠٠

بدأت روحية تستعيد حيويتها ، قرأت البرقية مرات ومرات ، وقفت أمام المرآة تشهد نفسها مرات ومرات ، وقفت أمام الصوان تنتقى فستانا تلقى به حبيبها ، اختارت الفستان الأخضر الأنيق الذى لم يره عاطف عليها قط ، ابدى اعجابه به وهو معلق ، هو الفستان الذى اشتراه جمال من أول ماهية قبضها ، وضعته برفق على السرير ، جلست تنظر اليه مستغرقة ، تستعيد حلم الظهيرة الغريب٠

* * *

تأهب الجميع للذهاب الى المطار ، غادروا الشقة الى السيارة ، تأخرت روحية لتضع اللمسات الأخيرة لزينتها ، حسين يستعجلها بالضغط على نفير السيارة ، هرولت ، دلفت الى جواره سعيدة ، انطلقت السيارة ، دارت بين النسوة ثرثرة خفيفة ، كلهن صدور منشرحة ، يتحدثن عن عاطف وعن نجوى ، ليلى تداعب سمير وتضع وجهه ملاصقا لزجاج السيارة ليتلهى برؤية الطريق ، روحية تنظر الى الأمام شاردة ، وبسمة عريضة مرحة تتراقص فوق شفتيها .

برزت صورة نجوى أمام عينيها تبتسم فى شقاوة الأطفال ، تهز رأسها تلك الهزات الطفولية التى تحبها روحية ، هزت نجوى رأسها يوم سألتها روحية :

— هل توافقين على الزواج من عاطف؟

لم تتكلم نجوى ، اكتفت بهزة من رأسها ، قالت روحية :

— تكلمى ، لك مطلق الحرية ، أعرف مدى حبك لجمال ولا أستطيع اجبارك على الزواج من عاطف ..

قالت نجوى :

— الرأى رأيك ياماما ، أنت تعرفين عنى أكثر منى ، أحببت جمال ، ومازلت ، وسأظل على حبى له ، واعتقد ياماما أن هذا الحب لن يقف عقبة فى طريق اسعادى لزوجى القادم .

قالت روحية فى لهجة جادة :

— أعرف قدرتك يانجوى على اسعاد من حولك ، هى ميزة لك ، ومع ذلك لك الخيار حتى لا أكون متجنية عليك .. فكرى فى الأمر .

قالت نجوى :

— بتفكير أو بغيره ، عاطف مهذب ورقيق ، وبصراحة أكثر ياماما لا فرق بينه وبين أخيه ، الا انه جاد معظم الأحيان .

ـ أعرف ، صبغته روح زوجة أبيه بالجفاف ..

بلغت نجوى الرابعة والعشرين من عمرها ، تتمتع بجاذبية أنثوية تحرك الأشجان ، تضحك وتبتسم دائما ، بشوشة ، واعية مثقفة ، جميلة بريئة فى لهوها ، فاتنة مثيرة فى جدها ، تفخر بنفسها وبثقتها فى أفكارها ، والى جانب جمال الوجه والقوام ، جمال الروح الذى يضفى عليها الكمال القريب من المثل الأعلى ، راقت لعاطف صحبتها بعد أن أقام مع أمه ، يشعر بالمتعة فى الجلوس معها ، كانت أمه ترقبه ، وتختلق الأسباب لينفرد بها ، حتى تآلفا ، شعرت روحية ببوادر نجاح خطتها عندما لمست من عاطف الائتناس بنجوى فى بعض آرائه ، وكذلك خفت ، وتباعدت زياراته لأبيه ، تأكد لها كسب المعركة يوم جلست معه وحدهما فى حجرتها ، ابتدرته قائلة :

ـ ما رأيك ؟

ـ نجوى رائعة ياماما .

نظرت اليه مبتسمة وقالت:

ـ ولد ، انك تستحسن اختيارى ..

قال فى سرور :

ـ رائع ذوقك ياماما .

ـ أفهم انك ...

قاطعها بهزة رأسه علامة الموافقة ، رفعت اليه سبابتها ووضعتها قرب فمه قائلة :

ـ نجوى ابنتى أما أنت فابن أبيك ، هل فكرت جيدا ؟

ـ فكرت طبعا ، ألم تكن اختيارك لأخى ؟ ، خلاص ، لن تخرج عن العائلة ، وأرجو أن اسعدكما معا ..

أمسكت أمه بأذنه قائلة :

ـ ليكن فى علمك ، سعادتى أستمدها من سعادتها ، انها ابنة لى قبل أن تكون خطيبة أخيك ، لا أنسى ما حييت ملازمتها لى

فى محنتى ، وهى ...

وضع عاطف يده على شفتى أمه وقال :

ـ أعرف ياحبيبتى ..

تزوج عاطف بنجوى ، عاشا معا فى سعادة غامرة فى بيت الأسرة ، مضت الأيام سريعة فى عدوها ، رقى عاطف ونال رتبة الرائد فى سنوات قلائل تعد على الأصابع ، اعتاد دائما الجلوس بين يدى أمه مستغرقا فى أحلامه :

ـ دخلت الجيش لأثأر لأخى ياماما ، لم يكن الجيش رغبتى كما تعرفين ، لكنى دخلته لتحقيق النصر ..

تقول روحية متأثرة :

ـ وتحارب ياعاطف ، وأموت حزنا عليك أنت الآخر ..

يقول فى ثقة رجولية :

ـ لا يا أمى ، لن تموتى بل ستفرحين ، ستشعرين بأن أخى لم يمت ، بل حارب وانتصر ، عاهدت نفسى على اكمال مهمته ..

عادت روحية الى نفسها وحسين يقول هامسا :

ـ أظنك معهما الآن فى الطائرة .

ضحكت روحية فى مرح وقالت:

ـ طبعا ، طول عمرك تصفنى بأننى خيالية ..

جففت دمعة فرح انزلقت على وجنتها وعقبت:

ـ الخيال متعب كما تعرف..

قادهم حسين داخل ردهات المطار الى الاستراحة ، تركهم وذهب يستفسر عن موعد وصول طائرة موسكو ، وقف مذهولا أمام أحد المسئولين يستمع اليه :

ـ لن تصل اليوم طائرات من موسكو٠٠
ـ كيف ياسيدى ؟ جاءتنى برقية من ابن أختى ، سيصل الليلة فى العاشرة ٠

قال المسئول فى تبرم :
ـ انه عملى ياسيدى ، لا ننتظر أى رحلات من موسكو ، موعدها الثالثة ظهر الغد ٠٠

أمسك حسين بالبرقية بين يديه وقال فى دهشة :
ـ أيكما أصدق ؟

أولاه المسئول ظهره وانصرف ، عاد حسين فى خطوات بطيئة يضرب كفيه ، صاح مغتاظا :
ـ انها الفوضى سبب كل المصائب٠

ثم أردف :
ـ يقولون لا طائرات قادمة من موسكو٠٠

قالت فاطمة مهدئة :
ـ مهما يكن ، سننتظر حتى العاشرة٠٠

جلس حسين والتفكير يمسك بزمام رأسه ، هل ينتظروا حتى العاشرة؟ ، أمامهم ساعة كاملة ، وما العمل اذا لم تصل الطائرة؟ لن تغادر روحية المطار حتى تطمئن على عاطف ، ستتألم وتضطرب وقد يصيبها مكروه وهى جالسة فى مكانها ٠٠ مرق برأسه خاطر أكد بابه التفكير ، عندما سافر عاطف قال فى وداعهم أنه سيغيب ة كاملة ، لم يمض على سفره الا ثمانية شهور فقط ،أدرك حسين ن البعثة قطعت تدريباتها ، ربما بسبب قرار من الدولة ، ربما لسوء العلاقات ، زاد تأكدا من رجاحة فكرته أحداث الآونة من معارك صحفية ، بعد طرد الخبراء ، وجد المبررات التى بها يقنع روحية فى سهولة ، ودون عناء ، اتجه اليها قائلا :
ـ فاتنا أن نفكر لماذا قطع عاطف بعثته؟ ، لم يمض على سفره

الا ثمانية شهور فقط ، لابد أن الدولة استدعته·

قالت فاطمة مؤيدة :

ـ صحيح ياحسين ، راودتنى نفس الفكرة منذ برهة··

هزت روحية رأسها قائلة :

ـ ربما جاء فى أجازة ··

رد حسين فى ثقة وعزم :

ـ استبعد أن يكون الأمر كذلك ، كيف يحصل على أجازة ولم يبق الا أربعة شهور ، الذى أستطيع تأكيده أن العلاقات بين مصر وروسيا ازدادت سوءا ··

قالت روحية وشعورها بالانتظار يملأ نفسها مللا :

ـ على أية حال سيعود ، هذا كل ما يهمنى ··

سرحت ببصرها فى وجوه الموجودين بصالة الانتظار ، مبعثرون فى أماكن متفرقة ، تراءى لها عاطف ينزل على سلم الطائرة ، غاب عن بصرها قليلا وتقمصت شخصيته شخصية أخرى ، شخصية الدكتور مصطفى ، هشت صورته بيدها ، عادت اليها صورة عاطف يسرع اليها ، يلقى بنفسه بين ذراعيها ، تهرول نجوى هى الأخرى ، توقفت عن شرودها وابتسمت فى رضى وسرور ، امتلأ صدرها بالأمان ، تسللت السعادة الى قلبها وهى تفكر فى عاطف ، منذ تسلمت برقيته وهى تفكر فيه ، فى وصوله ، لكنها الآن تفكر فى كيفية لقائه·

يوم جاءها يزف البشرى ، جلس كعادته بين يديها ، مسحت شعره بيدها وقبلت جبينه قائلة :

ـ ماذا وراءك ؟

ـ سأسافر ياماما الى الخارج ·· بعثة ياماما·

ثم نهض صائحا :

ـ نجوى ·· نجوى ··

دخلت نجوى مهرولة ، أحاطها بذراعيه :

— خلاص ياحلوه ، سنسافر الى الخارج ، بعثة لمدة عام كامل ، سنرى العالم ، موسكو ٠٠

دار بها وهى بين ذراعيه ، توقف على أثر رؤية الدموع فى عينى أمه ، أحاط كتفيها وقال :

— ماما ، ماذا يبكيك ؟

— لا شىء ياعاطف ٠٠

سافر عاطف واصطحب زوجته معه ، عودها على الاتصال بها تليفونيا كل عشرين يوما ، يزف اليها أنباءه ، عدت العشرين يوما على أصابعها ، احتفظت بأوراق نتيجة الحائط منذ آخر اتصال حدث بينهما ، حسين لم يخطىء فى حسابها ، مديحة نبهتها الى ذلك ، فاطمة أعدت كلمة قصيرة تقولها له ، الخادمة الصغيرة عرفت موعد الاتصال من كثرة ما سمعتهم يرددونه ، ولم يتصل ، ثم أرسل برقيته ، وها هى تنتظر ساهمة شاردة ، جسد بلا روح وراس بلا عقل ، عين بلا رؤية ، وقلبها يكاد يتوقف ٠

مرت الساعة كخطف البرق ، تعجبت وهى ترى عقارب ساعتها تشير الى العاشرة ، اتجهت الى حسين تدفعه للاستفسار مرة ثانية ، لم تعلن مكبرات الصوت عن وصول طائرة موسكو ، دلف الى أذنيها وصول طائرة من بيروت ، أخرى من مالطة ، لم تسمع أى شىء عن طائرة موسكو٠

ذهب حسين ولم يغب طويلا ، عاد يشيح بيديه وهو يدعوهم الى مغادرة المطار قائلا :

— لا جدوى من الانتظار ، ستهبط الطائرة فى مطار حربى ٠٠ ما علينا الا أن ننتظر وصوله الى البيت٠٠

قالت روحية مقطبة جبينها :

— يعنى لا فائدة ٠٠

غادروا المطار ، ركبوا السيارة ، حسين يفكر فى الخاطر الذى

دفعه الى قول ذلك ، لولا ذلك ماغادرت روحية المطار ، ابتسم وهو يرى بديهته السريعة تنقذه ، مع من ؟ ، روحية ، الذكية اللماحة ، اخذ ينظر اليها بجانب وجهه ، رأى وجهها يعتليه العبوس ، رأى شفتيها المزمومتين لا تنبسان ، أدرك أن كل أحلامها تبددت ، وفى البيت هرولت الى حجرتها ، وأغلقت الباب وراءها .

* * *

رن جرس الهاتف ولم يمض على وصولهم ربع الساعة ، هـرول حسين ورفع السماعة قائلا فى لهفة :

— آلو ، عاطف ، متى وصلت؟ الآن ، حسنا ، تريد ماما ٠٠ لحظة واحدة ٠

ترك حسين السماعة واتجه الى حجرة روحية مناديا :

— روحية ٠٠ عاطف على التليفون ٠٠

فتحت روحية الباب وخرجت مسرعة وهى تصيح :

— صحيح يا حسين ٠٠

وتناولت السماعة فى لهفة ، واضطراب ، رعشة واضحة تغلـف صوتها المتكسر ، اندفعت الكلمات من فمها فى خيط لا ينقطـع ، تسأل وتستفسر ، تضحك وتبكى ، تنقل السماعة بين أذنيها اليمنى واليسرى ، اليسرى فاليمنى ، انتهت قائلة وهى تقبل السماعة :

— أسرع ياعاطف ، اسرع ياحبيبى ٠٠

لم تغادر مكانها ، أمامها قرص التليفون ، فى ذهنها أرقام الأقارب والمعارف والأصدقاء ، تنبعث نشطة فى رأسها ، تنقل اليهم جميعا نبأ عودة عاطف من موسكو ، انتهت ووقفت تحدق فى الآلة الصماء مندهشة ، سألت نفسها : " لماذا فعلت ذلـك ؟ " تذكرت انها فى كل مناسبة سعيدة تمر بها تتصل بكل الناس ، هى التى أشقت نفسها بنفسها ، الجميع يرونها سعيدة علـى الدوام ، يحسدونها ، أصابها الحسد بما أفقدها كل طعم للسعادة علـى مدى سنوات طوال ، كادت ترفع السماعة وتعيد الاتصال ثانيـة مستنكرة ما نقله لهم الهاتف منذ لحظة ، تكذب النبأ الذى نشرته ، خافت أن يروا فى تصرفها نوع من الجنون ٠

ضربت بيدها على جبهتها ، شعرت بالضعف أمام اصـلاح ما أفسدت ، هل يمكنها اصلاح ما فسد على طول الحقبة الماضيـة ؟ هل يمكنها استعادة زوجها بعد فراق سنوات وسنوات ، هل يمكنهـا استعادة جمال من مصيرة المجهول ؟ عضت بنان الندم حتى لا تنسى ،

ولا تكرر ما فعلت فى أيامها المقبلة ، أشركت الناس جميعا حولها فى سعادتها ، عادت عليها المشاركة بالشقاء ، فلتعش لنفسها اذن تحمى شمعتها من أنفاس الحاسدين الحاقدين .

مشت متهادية الى حجرة الصالون ، شملتها بنظـرة فاحصة ، بعد قليل تستقبل الزوار الذين سيأتون لتهنئة عاطف ، اقتربت من البيانو القديم ، رفعت الغطاء فامتلأت الحجرة بالتراب والغبار ، امتلأت خياشيمها بالرائحة الراكدة ، امتدت أناملها وضربت فوق المفاتيح وهى تستعيد ذكريات الأيام الحلوة ، عندما كانت تجلس بالساعات تضرب الأنغام الشجية ، عندما كانت تشعر بالسعـادة تفيض خارج صدرها ، تملأ البيت بالرقص والفرح ، تملأ الدنيـا حولها بالسعادة الباهرة ، انها سعيدة ولا يقدر الجميـع مبلـغ سعادتها ، لا حسين ولا أختيها ، ولا زوجة أخيها ، لا أحـد قلة من الناس هم هؤلاء الذين تميتهم المحن مائة مرة فى اليـوم ، ومع ذلك يعيشون لينعموا فى غفلة من الزمن المتقلب بلحظة سعـادة واحدة ، لحظة تبدد شقاء العمر كله .

برز الدكتور رفعت أمامها داخل اطار معلق للوحة طبيعيـة ، رأته يبتسم ، اقتربت من الصورة وبرز وجه جمال متغضنا مكفهـرا ، نظرت اليه طويلا ثم تركت الحجرة الى الصالة ، أمرت الخادمـة بتنظيف الصالون من الأتربة المتراكمة ، منذ سافر عاطف وهى مغلقة لم تستقبل زوارا ، لم يستقبل البيت الا بعض المقربين ، أدركت أن الحياة تدب فى البيت بوجود عاطف ، وزوجته المحبوبة نجوى .

دلفت روحية الى حجرتها تعيد النظر فى زينتها ، الأمـل فى السعادة المرتقبة يملأ روحها وكيانها .

تذكرت فجأة انها لم تتصل بالدكتور رفعت ، لم تجد فى نفسها مبررا لعدم الاتصال به رغم توغل الليل ، لم تفكر أنه قد يلومها ، لـم تجد الشجاعة ، تشعر بأنه أقرب الناس اليها ، وحده يمكنـه أن يعرف بنظرة سريعة ما يعتمل فى نفسها ، وحده كابد الشقـاء

مثلها ، ربما أكثر منها ، شاركها سنوات طويلة محنتها ، شعرت بضرورة الاتصال به ، اتجهت ثانية الى الصالة ، ألقت التحيـــة الى عصمت الذى جاء أثناء تواجدها بحجرتها ، أمسكت بالهاتف وأدارت القرص ، جاءها صوته دافئا حنونا ، نقلت اليه الخبـــر ، أعلن صوته فرحته واغتباطه ، غزا صدرها شعور بالسعادة لعثورهـا على انسان يشاركها بمثل هذه الحرارة ، نظرت ناحية عصمت وفـى قلبها أسى على نظرته المادية للحياة ، حسرت نظرتها وهى تشكر الدكتور رفعت وقد أعلنها انه سيطير اليها على جناح السرعة.

ناداها حسين وهى تعبر متوجهة الى حجرتها ثانية ، وقفـت متسائلة :

ـ ماذا ياحسين ؟

ـ من كان يحدثك ؟

ـ رفعت ..

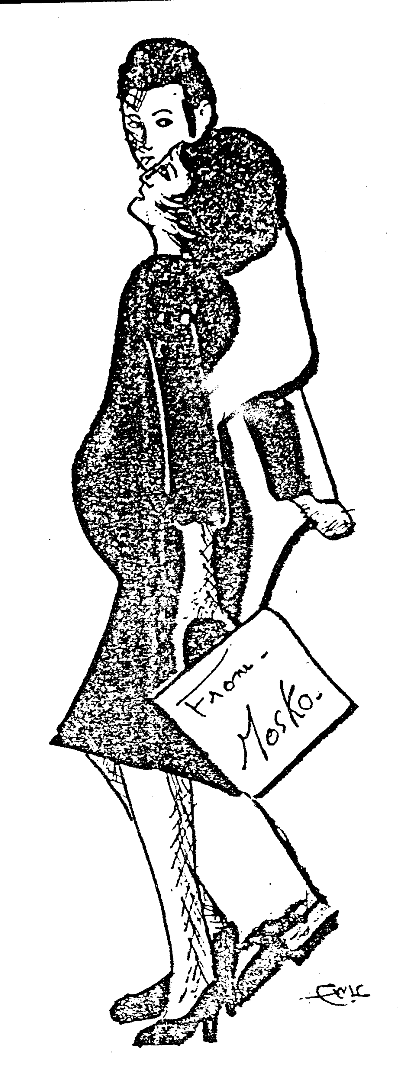
ـ كنت سأطلب منك الاتصال به و ...

قاطعته :

ـ أخبرته..

تركتهما ، توجهت الى حجرتها لتغير ملابسها فلم يعـــد هناك متسع من الوقت.

* * *


From -
Mosko.

غادر عاطف المطار بعد لقائه ببعض القادة الذين كانوا فى استقباله وزملائه فى البعثة ، تلقوا أمرا بالعودة بعد قضاء الليل فى بيوتهم وبين ذويهم ، ففى الصباح يعقد اجتماعا هاما تحضره شخصية قيادية كبيرة٠

شعر عاطف بقلبه يتقافز وهو يسابق السيارة التى أقلته وزوجته الى البيت ، كانت نجوى مسرورة مرحة ، لا تكف عن وصف ماتحس به من مشاعر فياضة ، وشعور بالراحة بعد العودة الى الوطن٠

قالت وهى تضع يدها على قبضة عاطف:

- صحيح ياعاطف البعد عن الوطن متعب ، لا أدرى حقيقة كيف يعيش المغتربون ، ألا يشدهم الحنين ؟

قال عاطف :

- كل انسان يحن الى مسقط رأسه ، ولكل انسان ظروفه ، اننا لم نغب طويلا ، مابالك لو عشنا سنوات؟

ردت شاهقة :

- لا ياعاطف ، لا يمكن ، لا أستطيع ، انك لا تتصور ما يدور بخيالى منذ ركوبنا الطائرة ، اننى أراهم الآن ، خاصة ماما روحية ٠٠

وتطلعت اليه ، وجدت عينيه مستقرتين على كتفى السائق فأيقنت انه شارد اللب ، وانه لم يستمع الى كلمة منذ شهقت ٠

سرحت ببصرها عبر زجاج السيارة ، وشعور بالأمان يعبر بها من جو الجليد هناك ، الى الجو الحار الذى ألفته أمدا طويلا من عمرها ، تعانق الأبنية ، الأشجار ، زحام الناس فى كل مكان ، تعانق السيارات المهرولة فى عكس الاتجاه أو التى تمر من جوارها فى نفس الاتجاه وتسبقهما ، تنبها على صوت السائق وهو يوقف السيارة :

- وصلنا يابيه٠٠

تلقته أمه بفرحة غامرة ، وأمومة جياشة ، انهالت عليه تقبيلا وعناقا ، تقبله فى جبينه ، فى جبهته ، فوق عينيه ، تمسح على شعره بيد حانية ودموع الفرحة تنساب ساخنة فتغرق وجهه ، خاله حسين يمد يده وينتظر ، ينظر الى روحية محدقا لكنها لا تتركه ، ينظر عاطف الى خاله بعينين مبتسمتين يستنجد به ،لا حيلة ، أمه لا تريد أن تتركه ، خاله وخالتيه وزوج خالته وزوجة خاله متلهفون جميعا الى مصافحته ، انتهوا من مصافحة نجوى وتقبيلها ، وبعد اجهاد استطاع أن ينتزع نفسه من أحضان أمه ، ربت بيده فى حب على خدها :

ـ لحظة واحدة ياماما ، اصافح خالى وزوج خالتى ..

تبادل عاطف ونجوى نظرة خاطفة ، فهمتها نجوى فابتسمت وهى تلقى بنفسها بين ذراعى روحية قائلة :

ـ ألا نصيب لنجوى فى قبلاتك الحارة ؟

ثم أردفت وهى تطبع قبلة على خدها :

ـ لشد ما أنا مشتاقة اليك ..

بحلقت روحية فى وجه نجوى المتورد بالحمرة ، خيل اليها كأنه يرسل أشعة مملوءة بالحب والسعادة ، بدت دهشة روحية فى تحرك عينيها فتحا واغلاقا ، ضيقا واتساعا ، تصعد نجوى بنظرات تكاد تلتهمها بها فرحا واغتباطا ، ضمتها اليها فى حنان ، هوت على وجهها بالقبلات وهى تضحك وتعاود ضمها فى حنان أم رؤوم :

ـ مبروك ياحبيبتى ، ألف ألف مبروك .

بادلتها نجوى الضحك ، التقت نظراتهما ، وتعانقت فوق بطنها البارز الى الأمام ، قالت روحية سعيدة :

ـ مبروك جمال الصغير ..

ثم اتجهت نحو عاطف ، أمسكت ذراعيه قائلة ودموعها تنهمر فى سيل متدفق :

ـ مبروك ياحبيبى ولى العهد ، كم أنا سعيدة ..

ثم تهالكت فوق المقعد :

ــ آه يا ربى ، كم أنا سعيدة ..

مرت فترة قصيرة فى عمر الزمن ، طويلة فى عمر روحية ، تخلص اللقاء من التوتر الذى ساده ، سيطر الهدوء على النفوس والأرواح وارتخت الأعصاب المشدودة كأوتار الكمان ، هدأت كل المشاعر المتحفزة ، جلسوا جميعا يتبادلون النظرات فى حب وحنان .

قالت روحية وكأنها تسأل كل الوجوه المحيطة :

ــ لا أحد يستطيع تصور سعادتى ، لا أصدق أن عاطف ونجوى بيننا ، كأننى فى حلم ..

ضحك حسين وقال :

ــ يا سبحان الله ، كدت تعتصرينه وتقولين حلم .. من كان يراك منذ ساعة يظن انك ستقدمين على الانتحار ..

ردت على الفور :

ــ استغفر الله يا حسين ..

قال حسين ، وقد بدأ يقص لعاطف ذهابهم الى المطار، وما حدث هناك :

ــ أخبرونى بأن طائرتكم لم تحضر وأنها ....

قاطعه عاطف :

ــ آسف يا خالى ، سببت لكم التعب ، عرفت متأخرا أننا لن نهبط فى مطار القاهرة .

قدمت مديحة أكواب الشراب ، انخرط حسين وعصمت فى حديث جانبى ، وروحية اتخذت مكانها بجوار نجوى وطلبت من عاطف أن يجلس بجوارها فى الجانب الآخر ، وضعت فوق كتفيهما ذراعيها وقالت:

ــ أوحشتمونى يا حبايبى ..

كان التعب والارهاق باديا على وجهى عاطف ونجوى ، تثاءب عاطف أكثر من مرة ، كان على وشك القيام عندما دق جرس الباب ، هرولت مديحة بينما قالت روحية :

ـ انه رفعت بالتأكيد ..

قال عصمت لحسين بصوت مرتفع :

ـ سنلتقى غدا ..

ـ باذن الله ..

ـ حتى ننتهى ندفع ونوقع العقد ، أنت تعرف الأسعار كل يوم فى ارتفاع ..

التقى الدكتور رفعت بعاطف ، أخذه بين ذراعيه وقبله ، شد على يده مهنئا بسلامة العودة ، ثم صافح نجوى وابتسم ابتسامة لها مغزى ، قال ضاحكا وحسين يدعوه للجلوس :

ـ وهل هذا وقت ضيافة ؟ ، جئت فقط لأكون أول المهنئين لعاطف ونجوى ..

نهض عصمت مستأذنا بينما الدكتور رفعت يقول :

ـ اذا حضرت الشياطين ...

قاطعه عصمت قائلا :

ـ قل اذا حضرت الملائكة ياعزيزى ، ألست من ملائكة الرحمة ؟

وتبادلا الضحك ، كما شاركهما الجميع بالابتسام ..

خرجت ليلى فى أثر زوجها ، قال وهو يطبع قبلة على جبهتها :

ـ والثانية لسمير ..

ثم قبلها ثانية وانصرف .

حاول حسين ابقاء الدكتور رفعت ، نظر الدكتور الى ساعته وقال :

ـ انها الواحدة ، عن اذنكم ..

تناول الأيدى الممدودة مصافحا ، قال لعاطف :

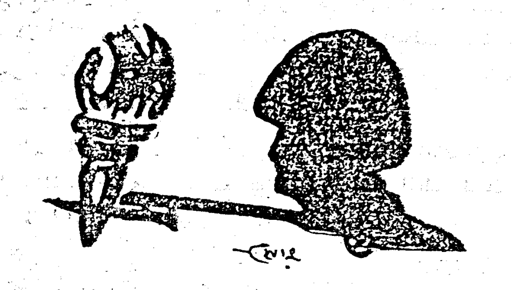
ـ يبدو عليك الارهاق ، ينبغى أن تنام ..

عقب عاطف متثائبا :

ـ وعندى اجتماع فى الصباح ..

انصرف الدكتور رفعت ، بينما وقفت روحية أمام عاطف تمنعه من الذهاب الى حجرته مصممة على تناول العشاء معها

* * *



جلس عاطف يجول بعينيه فى أرجاء القاعة الفسيحة ، يلقى التحية بإيماءات رأسه الى زملائه ، يستمع الى بعض المناقشات الجانبية بين زملائه وكل منهم يلقى على مسامع الآخرين تخميناته وتكهناته حول موضوع هذا الاجتماع الطارئ ، كل الأحاديث تدور وتصب كلها فى أن الاجتماع بخصوص مناورة من تلك المناورات التى يقوم بها الجيش ، والتى تكلف العدو تكاليف باهظة ، اذ يتصور أن الجيش بسبيله الى عبور القناة لتحرير الأرض المحتلة ، يجمع قواته ويعلن حالة الطوارئ ثم يعيد فك حالة الطوارئ ، ويتحسر على الخسائر التى تنجم عن مناورة الجيش المصرى ، تكهنت قلة أخرى من الضباط بأن هناك حربا لحالة التأهب القصوى التى نلمسها فى الجيش ولم يجرؤ أحد على القول بأن الحرب وشيكة الوقوع، الاحتمالات كلها بعيدة كل البعد عن أى ايحاء بالتحقيق .

سأل عاطف زميله الجالس بجواره :

- من يرأس الاجتماع ؟ قائد الأركان أم القائد العام ؟

رد الزميل :

ـ لا أدرى ، العلم عند الله.

وهز رأسه مؤكدا عدم معرفته لأى شئ ، أخذ نوع من الصمت يسرى فى القاعة ، ويتسلل الى النفوس، خيم الصمت ولم يكن يسمح الا أصوات الأنفاس ، دخان السجائر يرسم الحلقات فوق الرؤوس ، تتصل الحلقات لتكون سلسلة من الدخان تتسع وتتسع حتى تصطدم بسقف القاعة ، وتتلاشى.

تناهى الى سمعهم صوت أقدام عب فى خطوات ثابتة تقترب من باب القاعة ، هب الجميع وقوفا على أثر دخول القائد العام الذى وقف أمام المنصة الرئيسية وحياهم باشارة من يده تصحبها ايماءة :

ـ تفضلوا ياحضرات الضباط..

وأشار لهم بالجلوس ، اتخذ القائد العام مجلسه خلف المنصة ، دخل فى أعقابه عدد من معاونيه يحمل أحدهم أوراقا وضعها أمامه ، يحمل آخر خريطة كبيرة علقها خلف القائد على الحائط ، بدأ القائد العام يشرح خطة حربية ، قام القائد الى الخريطة وأخذ يبين مواقع الاعداء فى سيناء ، وكل الطرق المؤدية اليها ، وامكانيات كل موقع منها ، ثم أشار بالحرص من حقول الألغام التى أشير اليها باللون الأحمر ، ألقى ببعض الأوامر والتعليمات ثم عاد الى الجلوس ، سألهم عمن يكون لديه سؤال أو استفسار :

ـ ليسأل كل من يريد الاستفهام؟

رفع عاطف يده لأخذ الكلمة ، أشار اليه القائد بالتحدث ، وقف منتبها وقال :

ـ متى يبدأ التنفيذ يافندم؟

سرت بعض الهمهمات فى القاعة ، ضرب القائد بيده على

أوراقه وقال :

— ارجوكم الهدوء ، أعرف أن السؤال يدور فى خلدكم جميعا ، وأبشركم بأن القرار جاهز ، التوقيت متفق عليه ، ستصلكم الأوامر فى مواقعكم ، الآن ستوزع عليكم بعض الاستمارات لملئها ..

ثم انشغل القائد العام بمطالعة ورقة جاء بها اليه أحد معاونيه من خارج القاعة ، بينما كان آخر يقوم بتوزيع الاستمارات على الضباط ، انشغل الضباط جميعا بملئها .

لمس عاطف روح القائد العام ، رأى على وجهه استبشارا وسرورا ، لمس فى حديثه تودداً وتلطفا ، رأى روحه المعنوية العالية ، تحدث اليهم حديث الأخ ، والأب ، أيقن عاطف أن هناك حربا فعلية على الأبواب ، وأن الروح السائدة تختلف كلية عن روح أى اجتماع سبق ، وحين ملأ الاستمارة تأكد له ، كما تأكد للجميع أنها الحرب ولا ريب فيها .

خرج عاطف مع زملائه يتبادلون الحديث فى صخب أحيانا ، وفى هدوء أحيانا أخرى ، قال أحدهم :

— لم أعد أثق فى كل ما يقال ، كم مرة قيل لنا هذا الكلام ، وكم مرة ...

قاطعه عاطف قائلا :

— لا أظنها مناورة هذه المرة ، أتعرف أنى كنت فى موسكو واستدعيت على عجل ، لا أظنها كما تظن ، لو صدق تكهنك فان ذلك يعنى ..

وصمت برهة متفكرا ثم هتف :

— يعنى أن التهريج السياسى انتقل للجيش ..

عاد الأول يقول فى سخرية :

— التهريج ، لقد أصبح ظاهرة شائعة ، لا يغرنك الضبط ،

والربط ، هناك الكثير من اللاضبط ، واللاربط ..

قال ثالث مشيحا بيديه فى الهواء ، يحاول كبت ثورته بين ضلوعه :

— يبدو وكأننا لم نتعلم شيئا من النكسة ، العدو يعد عدتـــه ، ونحن نهرج ونضيع الوقت بمقولة انه فى صالحنا ..

قال عاطف :

— لو استكملنا سلاحنا الهجومى ..

قاطعه الأول :

— الغريب حقا اننا ضباط الجيش لا نتبين موقف قيادتنا ، هى فى واد ، ونحن فى واد آخر ..

قال الثالث فى تهكم :

— مهرجانات يابيه ، لقاءات ، اجتماعات ، كل ما أخشـاه أن يتمخض الجبل فيلد ...

قاطعه عاطف مبتسما :

— الذى نخشاه جميعا أن يكون الجبل عقيم ..

قال الثانى :

— مما يدحض فكرة الحرب اقبال شهر رمضان ، على فكرة كل سنة وانتم طيبون ، وبعد رمضان الأعياد ، وبنات الأعياد ، ثم العديد من المناسبات..

تصافحوا جميعا ، تبادلوا التهنئة بحلول شهر رمضان الكريم ، قال عاطف مودعا :

— الى اللقاء ، اذا لم نحارب العدو ينبغى أن نحارب أنفسنا .

انطلقت السيارة بعاطف ، انطلقت أفكاره فى اتجاه عكسى ، طوت ذاكرته الحاضر بكل ما فيه ، عاد الى الماضى ، أيام كان فى الكلية الحربية ، يذكر انتقاله الى السودان ، بسبب غـــارات

العدو ، وقد دانت له سماء مصر بعد أن دمرت كافة الطائرات وهى رابطة الجأش فى أرض المطارات ، بعد تخرجه الحق بكتيبته على ضفاف قناة السويس ، اتخذ موقعا عانى فيه المأساة كلها ٠٠ يذكر قيام العدو بالاغارة كل يوم ، بالليل والنهار ، كان عليهم تحت ستار الليل الأسود أن يدفنوا أنفسهم أحياء داخل دشم محفورة فى باطن الأرض أشبه بالقبور ، يكتمون أنفاسهم حتى مطلع النهار ، يأخذ كل منهم أنفاسا عميقة ليعوض أنفاسه التى احتوقت طول الليل ٠

أوقف عاطف سيارته أمام البيت ، غادرها ونقد السائق أجره وهرول فوق الدرج صاعدا الى الشقة ، وجد الأسرة جميعها فى انتظاره وقد انضم اليها بعض الأقارب جاءوا لرؤيته ، تلقوه جميعا بالترحاب ، تصدر مجلسهم وهو يكابد الارهاق ، يقاوم رغبة شديدة تلح على جفنيه للنوم ، لكنه لا يستطيع مغادرة مكانه ، خشى اغضاب أحد الزوار ، نظر الى نجوى بعين كليلة مرهقة ، فهمت كالعادة نظرته فقامت من مجلسها ، خرجت الى الصالة ونادته ، نهض ملبيا ، توجها معا الى حجرتهما ، لحقت به أمه ، قال عاطف وهو يتثاءب :

— ماما ارجوك ، أنا فى غاية الارهاق ، وينبغى أن أكون فى كتيبتى غدا ٠٠

قالت أمه فى حنان وحب وهى تغادر الحجرة :

— على رسلك يا حبيبى ٠٠

ثم توقفت بالباب قائلة فى انزعاج :

— غدا ستكون فى الكتيبة ، ان غدا أول رمضان ٠٠
— كل سنة وأنتم طيبون ، لن يسعدنى الحظ بتناول الافطار معكم ٠
— لا ياعاطف ، لابد أن تكون بيننا ٠٠
— الأوامر ياماما ، لا تشغلى بالك بى ، معكم نجوى ، تصبحين على خير

اضطرت روحية الى غلق الباب وراءها قائلة :

— تصبحا على خير ··

تهالك عاطف فوق الفراش ، أبدل ملابسه جالسا ، دعا نجوى الى الجلوس بجواره وقال :

— نجوى ياحبيبتى ، سأسر اليك بأمر هام ··

ونظر فى عينيها :

— وارجوكل الرجاء ألا يصل أسماع ماما ··

— لا تخف ياعاطف ··

— آمل ألا تخافى أنت ، وأن تكونى عند حسن ظنى ··

لمح عاطف فى عينيها بعض اللوم فقال :

— تعرفين ثقتىفيك ، لكن الأمر أكبر منى ، وأخشى ألا تحتملى وقعه خاصة و···

ثم مسح على بطنها مردفا :

— خاصة وأننى سأكون بعيدا عنك وأنت فى حالة ماسة لبقائى ··

قالت نجوى بصوت متأثر :

— لا تخف ··

— اليوم كتبنا استمارات بمستحقاتنا من معاش و···

أصابه الصمت ووجهها يتبدل لونه :

— تمالك جأشك ، والا لا داعى لأن أكمل ··

قالت وقلبها يرتجف ، تحاول التماسك :

لا عليك ، هذه الأخبار يجزع منها أى انسان ياعاطف ، اذن هناك حرب كما سمعنافىموسكو ··

— حتى الآن لا أعلم ، وان كانت حربا فالأعمار بيد الله ، اعرف شجاعتك ، اثق فى قوة احتمالك ، أخشى ما أخشاه أن تصاب ماما بالجزع ، وتفقد أعصابها ، حاولى أن تخففى عنها ··و

قاطعته نجوى قائلة ، والدموع تنحدر منعينيها :

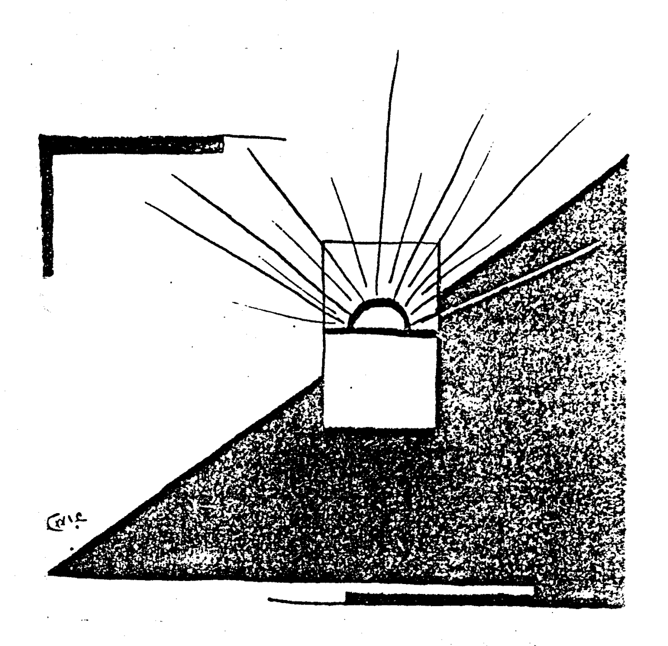
ـ ستحارب ياعاطف ، افتقدك ، وأعيش بدونك ..

وأجهشت بالبكاء ، ضمها عاطف الى صدره وقال متألما :

ـ انه قدرنا يانجوى ، علينا أن نتقبله صاغرين ، لا أريد رؤية الدموع فى عينيك ، هيا ، جففى دموعك ..

ابتسمت رغما عنها أثر مداعبته لها تحت ابطها ، شعرت بأن قلبها ينكمش وتخفت دقاته ، صدرها أشبه بميدان معركة حقيقية تتنازعه شتى العواطف ، تدور فى رأسها شتى الاحتمالات ،امتلأت روحها بالمخاوف والثورة والتمرد ، عاطف يتحدث عن الأيام المقبلة ، يرتب لها أمور حياتها وحياة طفلهما ، وهى لاهية عنه بمشاعرها المكلومة وقد عادت بها الأحداث مرة أخرى الى الماضى البغيض الذى حاولت التخلص منه.

* * *



مرة أخرى عاد عاطف الى موقعه ، عاد الى جنوده وتلقوه بفرح وسرور عظيمين ، مهنئين بسلامة العودة ، كان الجاويش علاء الدين ، الملقب بشيخ الكتيبة ومؤذنها وخطيبها المفوه أكثرهم سرورا وغبطة ، بدا وجهه متألقا متهللا ، تلقى عاطف بين ذراعيه فى أخوة صادقة وقبله قائلا :

— والله وحشتنا يا افندم ، الكتيبة بدونك جسد بلا روح ..

وازدادت ابتسامة علاء الدين اتساعا ، وهو يرفع عينيه الى السماء ويدعو الله صامتا ، سأله عاطف عما به فقال منشرحا :

— خلاص يا افندم ، حلمى تفسر ، تفسر الحلم بعودتك يا أفندم هانت ، وفات الكثير ولم يبق الا القليل ، واليوم خمر وغد أمر ، اقسم بشرفى يا أفندم لأكون أول من يكبر لله فى سيناء .

وضع عاطف ذراعه على كتف علاء الدين ، ضمه اليه فى أخوة صادقة ، ثم أخذ يسأله عن أحواله ، وأحوال زملائه ، عن حال التدريبات ، ثم أمره أن يجمع الكتيبة فى المساء فى أرض الطابور لاقامة حفل سمر صغير ..

كان عاطف يحاول أن يصرف تفكيره كلية عن آخر ما شاهده فى وداعه لأمه ولنجوى ، كان الوداع مؤلما ، احساس يخامره بأنه وداع غريب ، يشعر بأن روحه انتقلت وصارت على راحة يده ، وأنه لن يعود الى النور ثانية ، عاد الى الليل الحالك ، والخوف الدائم ، آلمه كثيرا قول أمه :

— غير معقول يا عاطف ، ألا يمكنك تناول الافطار أول يوم معنا ؟

— ليتنى أستطيع ياماما ..

همس فى أذن نجوى فى آخر اللحظات :

— تماسكى يا حبيبتى ، كونى بطلة ..

أشفق عليها من الحزن ، كان على وشك البكاء فما بالها وهى امرأة ، وفى الطريق لأن تصبح أما ، زادها فى الحياة عاطفة ،

رأى فى تجلدها وتماسكها قدرة على الاحتمال ، استمد منهـــا الشجاعة وتمالك زمام أعصابه وهو يقبلها مودعا ، تذكر وصيته لهـــا بالأمس ، طلب أن يكون ابنه ضابطا بالجيش ، عله يحقق ما عجز عمه جمال عن تحقيقه ، وما قد يعجزهوعن تحقيقه ، شــرح لهـا كل ما يستحق لهما بعد موته أو استشهاده ، كانا معا يبتلع كل منهما دموع الآخر ، وهى تحاول أن تمنع الكلمات الخــروج من فمه ، تكره الموت ، تكره أى حديث يدور عنه ، وعدته أخيرا ألا تخبر أمه بما قاله ، واعلنت فى عزم واصرار أن قدرتها علـــى الوفاء بالوعد موثوق فيها ، فليست الحرب أول ، ولا آخر محنــة تتعرض لها ٠

وبالرغم من انهماك عاطف مع جنوده ، وانتقاله بين كل المواقع والجلوس بين الجنود ، والاستماع الى شكاويهم ، فلم تفـــارق صورة أمه وهى ساهمة شاردة عينيه ، شعر بالخجل لكذبه على أمـــه لأول مرة بادعاء انتقال الكتيبة الى بور سعيد ، يبغى ألا يسبــب لأمه القلق ، مازال موقعه بالسويس ، أراد أن يدخل الاطمئنــان على قلب أمه لو قامت الحرب ، فمهما كان الأمر يعتقد النـاس أن المدينة بمنأى عن لظى الحرب على الجبهة ٠

كان الحنين يشده من ساقيه ، تغمره وحشة لكل شئ ،الرمال والدشم ، المعدات والرجال ، البرد والحر ، المطر والجفاف ، أحس بشهور ابتعاده وكأنها أعوام ، رغم الصيام ، لا يشعر بأى جوع أو عطش ، يشعر فقط بالحاجة الى كتابة رسالة الى أمــه ، وأخرى الى نجوى ، وثالثة الى أبيه ٠

كان لقاء عاطف بالجنود فى الرابعة بعد الظهر لقاءا أخويا ، صافحهم وداعبهم ، افترشوا جميعا الرمال ، جلس بينهم وبـدأ الحفل ، أحد الجنود يغنى ، آخر يراقص ثالث ، يلقـــى أحدهم بالنكات ، ثم انخرطوا فى الحديث عن المعركـة ، قال أحدهم :

ــ أقسم بشرفى لأشرب من دمهم ·· أوقفوا حالى الله يوقف أحوالهم ·· العيال فى بلدنا تزوجوا وأنا مؤبد فى الجيش ··

وقال آخر فى لهجة صعيدية :

ــ أنا من الصعيد الجوانى ، لا نترك ثأرنا أبدا ، قتلوا أخى وابن عمى ، أمى وعمى آمرونى ألا أرجع الا وأنا مرفوع الرأس··

ثم اتجه بعينيه نحو الشرق وأردف :

ــ الصبر يا أولاد صهيون ··

قال ثالث :

ــ أنا يا أفندم ليس لى أهل ، لا تهمنى الحياة ، أعيش فقط من أجل يوم أسوده فى حياتهم ··

يعرف الجميع قصة هذا الجندى ، انهار من شدة القصف بيت أسرته فى السويس ، ومات جميع من فيه ··

انفض اللقاء وتفرق الجنود الى خنادقهم ودشمهم ، التقى عاطف وهو فى طريقه الى خندقه بعلاء الدين ، رأى تجهم وجهه والحزن يخيم على نظرات عينيه فسأله مستفسرا :

ــ ما بك ياعلاء الدين ؟

ــ الجنود ياأفندم ، رغم ما فى نفوسهم من استياء ، لحظة الجد يبذلون كل غال ، سئموا الصمت وملوا الصبر ، يريدون الحياة والحركة ، يريدون الاستقرار حرب أو لا حرب ، أغلبهم زهور ذابلة ، وفى ربيع حياتهم ، لا يريدون سوى شيئا واحدا ··

ــ ما هو ياعلاء الدين ؟

ــ العبور ياافندم ، فى نفس كل منهم رغبة لن تتحقق الا بعد العبور ، فى حياة كل منهم قصة معلقة على العبور ··

قال عاطف وقد شرد ذهنه الى الاجتماع ، رأى وجه القائد متوردا بالبشاشة ، والثقة ، فقال فى تؤدة :

ــ قريبا هذا اليوم ياعلاء الدين ، كلنا نترقبه ، والى أن يأتى علينا أن نعمل فى صمت ، على أية حال سأذهب لتهدئتهم

في خنادقهم ..

قبل أن ينصرف علاء الدين قال :

— على فكرة ، افطارك في الخندق يا أفندم ..

— شكرا ..

مشى عاطف على الطريق المتهدم ، رفع المنظار الى عينيه وتطلع الى سيناء ، تراءت له مواقع الأعداء على مبعدة ، تراءى له خط سيره على الخريطة ، تخيل نفسه للحظة يقود كتيبته ، رفع ذراعيه الى أعلى ودفع بهما الى الأمام هاتفا :

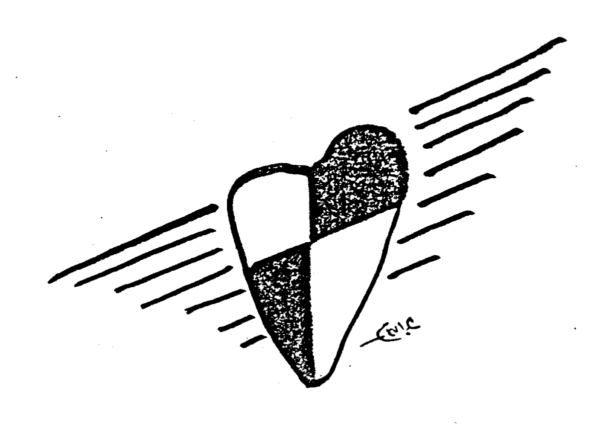
— اعبروا يا أولاد ، هذا يومكم ..

تنبه على الفور ، نظر الى نفسه وضحك قائلا :

— متى تتحقق أيها الحلم ؟

ثم اتجه الى خندقه ، جلس يتناول افطاره وفي رأسه تدور الأفكار ، الخيال يعيش في بيت الأسرة ، يرقبهم وهم يتناولون افطارهم وكل شارد في اتجاه ، الحزن يرتسم على وجه أمه ، خاله يداعبها بوضع المزيد من الطعام في اطباقها ، نجوى تلوك الطعام في تكاسل وشرود ، كأنه لم يفارقهم بعد .

* * *



أتيح للدكتور رفعت مرة أخرى أن يتردد على البيت بكثرة ، كل يوم تقريبا ، اذ كانت نجوى تشعر بتوعك كلما تحرك الجنين فى أحشائها ، وكان عليه بصفته طبيب الأسرة أن يباشرها كل يوم ، يحضر بعد اغلاق عيادته ويمكث ساعة أو بعض الساعة ، يسمرون ، يشهدون التليفزيون ، يتبادلون الأحاديث .

تنفرد روحية بنفسها بعد انصرافه ، تستعيد الذكريات معه ، يتصدر ماضيها القريب كله أو معظمه ، تستعيد كلماته ، ايماءاته ، تلميحاته ، مازال حتى الآن يأمل أن تكون زوجة له يوما ما ، تجد نفسها تفكر فيه دون ارادة أو وعى ، تراه يتهرب من حياته الزوجية متبرما من الملل الذى غزاها ، والروتين الذى دمغها ، يكثر من

اشاراته الى شعور الاغتراب الذى يعانيه ، هو وزوجته كغريبين وجدا فى مكان مغلق ، وعليهما أن يعيشا ويسعدا ، يشعر بافتقاد كامل للسعادة ، لم تستطع زوجته اسعاده كما كان يتمنى ، يدرك أنها مثله تشعر بالفاصل الغريب الذى يباعد بينهما ، وقد أحست روحية بالمرارة التى تقطر مع كلماته كلما جاء ذكر زوجته فى حديث.

كانت أمسية رائعة تلك التى جاء فيها عصمت متحمسا مسرورا ، جلس منشرحا وقال :

— عندى خبر بمليون جنيه ..

انبرت روحية قائلة :

— لا شئ فى حياتك يخلو من الفلوس ..

قال عصمت :

— والله ياروحية خبر يساوى أكثر من مليون جنيه ..

قال حسين مبتسما :

— الأرض واشتريتها ، والمصنع وتوسعت فيه ، ماذا وراءك ؟

قال عصمت :

— صاحب الأرض ..

سأل حسين كمن بوغت :

— ما به ؟

— يطلب يد مديحة ..

تبادلوا النظرات جميعا ، قال حسين غير مصدق :

— يارجل ، لا تهزل .. انه لا يعرف بيتنا .

قال عصمت مؤكدا :

— وأين أنا ياحماى ؟ ، الحقيقة الرجل أسر الى برغبته فى الحج الى بيت الله الحرام ، ولما كان أعزبا حتى الآن ، فانه يريد الزواج ببنت أصول ، وقد رشحت له مديحة .

أصيب الجميع بوجوم غير مصدقين ، أشعل حسين سيجارته وقال والدخان يلف كلماته :

ـ والله لو كان لها نصيب فليتقدم .

قالت روحية :

ـ المفروض أن نسألها أولا ..

قال حسين :

ـ لا ياروحية ، بعد أن يحضر وتراه نأخذ رأيها .. لابد وانك تذكرين يوم قالت أننا نبغى ازاحتها من البيت .. نريد التخلص منها بأية طريقة ..

هزت روحية رأسها ، بينما قالت فاطمة :

ـ من الأحسن فعلا أن تراه أولا ..

قال عصمت :

ـ يعنى أحدد معه موعدا للزيارة ..

قال حسين :

ـ حدد الموعد ، وسنكون فى انتظاره ..

ثم عاد عصمت يقول :

ـ وكما فهمت منه لا يريد فرح ومولد ، الرجل يريد اتمام كل شيء فى هدوء ، كما انه أبدى رغبته فى أن يتم الزواج فى أسرع وقت حتى يمكنه الاستعداد للحج ..

وبعد برهة صمت استطرد :

ـ لا أظنها ترفضه ، زيجة وحجة ، هل يرفض أحد هذه النعم ؟ ..

قالت روحية :

ـ لا أحد بالطبع ، لكن مديحة لها أفكارها الخاصة ، ولو قلنا نعم ستقول لا ، علينا أن نترك لها الحكم الأول ..

ثم همست روحية :

— أغلقوا الحديث فى هذا الموضوع ، أسمعها آتية ٠٠

دلفت الى الصالة مديحة تتقدم الدكتور رفعت ، وفى أعقابهما تسير نجوى متمهلة ، قال الدكتور رفعت بعد أن حيا عصمت:

— الأم والجنين على ما يرام ٠٠ كلها أيام ويصرخ ٠٠

ثم أضاف ضاحكا :

— ليحرم من فى البيت جميعا النوم ٠٠

قال عصمت للدكتور رفعت:

— مابك يادكتور ؟ غزا الشيب رأسك ٠٠

قال الدكتور رفعت:

— تركنا الشباب لكم يا أخ عصمت ٠٠

ثم استأذن الدكتور رفعت ، قامت روحية لتشييعه ، ثم عادت لتسأل عصمت:

— كيف حال ليلى والولد الشقى ؟
— بخير ٠٠
— أبلغها تحياتنا ٠٠

قال عصمت وقد تأهب للانصراف :

— ستكون عندكم فى الغد ٠٠

وأومأ برأسه لروحية ، ثم نظر الى عينيها ، هزت رأسها علامة الفهم ، قالت:

— نحن فى انتظارها ٠٠

ظلت نجوى تحدق فى وجه روحية ، فلم يكن ما يدور فى نفس الدكتور رفعت خافيا عليها ، ولم يكن ما بنفسها خافيا عليه ، ولم يكن أمر كليهما خافيا عليها ، خاصة وأن الدكتور رفعت يحيطها كل يوم بالأسئلة عنها ، ولا يطيب له التحدث معها الا عنها ، أعادها بأسئلته واستفساراته الى قصة الحب ، واستولت عليها قصتها مع

جمال ، أحبته وعاشت شوق الحبيبين لبعضهما البعض ، كأى فتاة كانت فخورة لأنها تحب ، تحلم باليوم الذى يتزوجا فيه ، ويضمهما سويا بيتا واحدا ، وحياة واحدة ، وفراش واحد ، كانت قريبة جدا من تحقيق أحلامها ، كانا معا يرسمان حياتهما ، يصوغان السعادة كما يريدانها ، ينجبان فى الأحلام طفليهما ويربيانهما، وينشآنهما أعظم تنشئة ، أيمن يتخرج طبيبا ، هدى تتخرج مهندسة لم ينسيا عطلاتهما الأسبوعية ، تقلهم عربتهم الصغيرة الى نزهات خلوية ، تعيد اليهما الحيوية والبهجة.

وجاءت الحرب ، واختطفت حبيبها ، تبدد من الوجود مبعث سعادتها كلها ، كان القدر قاسيا يوم حرمها منه ، يوم سلبها سعادتها ، والقى بها فى جحيم الحياة بدونه تلاطم أمواج الشقاء وحيدة ، تراه تارة فتطفو فوقها ، وتارة أخرى لا تستطيع تخيله فتغوص تحت الأمواج غارقة فى أحزانها وهمومها ، عاشت محنتها مع روحية وكل منهما تهون على الأخرى ، كان الدكتور رفعت هو البلسم الشافى لكليهما ، تبوأ منزلة الأخ الحنون ، بعطفه ، ورقته ، ووداعته ، بدا وكأن حياته ارتبطت بحياتهما ، وجدت فى شخصيته أشياء عديدة من جمال ، فيه منه طلاقة لسانه ، اناقة ملبسه ، جوانب كثيرة استهوت روحية ذاتها فكانت تقول :

— حينما أراه أشعر كأننى رأيت ابنى ..

كانت نجوى تعرف العهد الذى قطعته روحية على نفسها ، هى أيضا أخذت على نفسها عهدا بعدم الزواج ، كانت واقعة فى براثن المحنة ، وبعد عام على الأحزان برز العقل بفكره المستقل لابد أن تعيش حياتها ، تتزوج وحبها باق فى قلبها ، وتزوجت عاطف بعد مقاومة عنيفة من عواطفها ، تتذكر كل ما دار بينهما منذ سنوات وكأنه حدث بالأمس ، بل ويحدث اليوم وكل يوم.

تذكرت نجوى حديثها مع عاطف أثناء تواجدهما فى موسكو ، واتفقا على مفاتحة الأم روحية فيه ، أكدت نجوى لعاطف مابين رفعت

وأمه من حب لا يبين الا للمدقق ، لكن الحب والحنان يتضح للعين اذا ركزت نظراتها ، والعاطفة ناطقة فى عينهما تكاد تترجم نفسها الى كلمات .

بدا الأمر واضحا جليا فى أول أيام شهر رمضان ، قام الدكتور رفعت باعلان دعوته لنفسه على مائدة افطارهم ، قالت روحية ضاحكة :

— فكرة لطيفة ، واحضر زوجتك معك .

قال مبديا بعض الأسف :

— زوجتى مدعوة عن أسرتها .

وبعد تناول الافطار جلسوا جميعا أمام شاشة التليفزيون ، دار حديث هامس بين الدكتور رفعت وروحية ، شهدت تبدل أساريره فأيقنت أن روحية مازالت عند رأيها .

تذكرت نجوى كل هذه الذكريات قبل أن تغمض عينيها ، رثت لحال روحية ، كما تألمت لضياع الأمل من الدكتور رفعت .

أفاقت نجوى على صوت روحية وهى تطل من الباب بعد أن فتحته نصف فتحة :

— هل نمت يانجوى ؟

— ليس بعد ياماما ..

اقتربت روحية ، جلست على حافة الفراش ، قالت :

— هل تكتمين السر ؟

تطلعت نجوى الى روحية ، أوشك لسانها أن يفلت وقد خامرها الظن بأن روحية ستعترف بشىء ما يخص الدكتور رفعت ، فقالت :

— سرك بين ضلوعى ياماما ..

قالت روحية :

— هو ليس سرا بالمعنى المفهوم ، لكنه سيتكشف غدا .. قال عصمت أن الرجل الذى باعه الأرض سيتقدم لطلب يد مديحة .

تبدد ظن نجوى ادراج الرياح ، بدت الدهشة على وجهها ممزوجة بالاستغراب ، قالت مبتسمة :

— أحقا

قالت روحية موحية برأسها :

— أجل ·· وليوفقها الله ولا ترفض ··

قالت نجوى فى شبه تأكيد :

— ان شاء الله ستوافق ··

وقفت روحية وقبلت نجوى فى جبينها قائلة :

— تصبحين على خير ··

— وأنت من أهل الخير ·

شيعتها نجوى بنظرات مليئة بالحب ، وتمددت فى فراشها وعزمها على مفاتحة روحية فى أمر الدكتور رفعت يقوى ·

* * *

كان التدريب الشاق هو برنامج العمل اليومى ، يأخذ عاطف جنوده ، يخرجون من خنادقهم يحمل كل منهم أدواته ، يحفرون بها خنادق جديدة تبادلية ، يصنعون سواتر من الرمال ، اليأس يخيم على الوجوه ، لكل منهم أسرة يعيش بعيدا عنها منذ أمد ، أيام الأجازة قليلة لا تشبع نهم ، ولا تهدئ خاطر.

استرسل عاطف مع ذكرياته ، يذكر يوم قامت قوات العدو بقصف الموقع ، رد الموقع بنيران كثيفة تشيعها نيران كامنة متأججة فى الصدور ، هاج الجنود ، صرخوا بصيحات الحرب ، انتظروا وهم يلهبون جبهة العدو بالقصف المركز أمرا تشتاق اليه نفوسهم ، تصايحوا وقد لاحت لهم بوادر القوة باسكات مواقع العدو بقدرتهم على العبور.

انتهى القصف ، وبعده خمدت الروح التى ارتفعت ، ثار علاء الدين وانفعل صائحا :

— دعونا نحارب ، لم نحارب فى ٦٧ ، فيما سكوتنا ؟

ثم بكى علاء الدين ، بكى وهو يتذكر ، ويقص على عاطف يوم كان فى سيناء ، تتخذ كتيبته موقعها فى غزة ، تسبقهم روحهم وهم يقطعون الصحراء متغنين بيوم ينتهى فى الوجود الصهيونى من قلب الأمة العربية.

بدأت المعركة ، تقدموا يسوقون العدو أمام زحفهم كالأغنام ، يندفعون أكثر فى زحفهم ، يكسبون أرضا لم تطأها قدم أى عربى منذ عام ١٩٥٦ ، وفجأة امتلأت السماء بطائرات العدو ، تلقى عليهم سيلا من القنابل ، توقف زحفهم ، تقهقروا يحتمون من الطائرات المغيرة ، تعالت من بينهم الصرخات بالانسحاب ، كاد يفقد عقله وهو يفتش فى السماء عن طائرة واحدة تحميهم ، صراخ الجرحى من زملائه يصم أذنيه ، صرخ بأعلى صوته :

— أين سلاحنا الجوى ؟ ، أين طائراتنا ؟

جالت عينى علاء الدين فى الأفق ، لمحها طائرة واحدة ، مروحية ، تطير بصعوبة وسط قذائف العدو ، أحاطت مقاتلات العدو بها ، رأى طاقمها يقفز بالمظلات ويتناثر فى الصحراء ، انتبه فجأة ليجد قوات العدو تتقدم نحوهم مسرعة ، صرخ فيهم قائد الكتيبة :

— أسرعوا بالانسحاب ، أسرعوا ، الأسلحة الثقيلة تخلصوا منها ،

وكان القائد أول من ركب سيارته ، وأول من أولى ظهره للميدان .. شيعه علاء الدين بكل ما تجمع فى فمه من بصاق مرارته كالعلقم .

كانت الضربة قاضية لعلاء وزملائه ، تحطمت كل الآمال فى نفوسهم ، ترك أغلبهم أسلحتهم الثقيلة بعد افسادها ، وودعوها بما جادت به المآقى من دموع ، تبعثروا وفقد كل منهم أثر رفاقه ، لاينسى علاء الدين ضياعه فى الصحراء شريدا تائها ، جائعا عريانا يعانى جروحا فى ذراعيه وكتفه ، أيام وأيام يمشى فى الصحراء بالليل ويدفن نفسه فى الرمال نهارا ، تعفنت جراحه ، تصاعدت رائحة تقيحها وجعلته يشمئز من رائحته ، دمه يغلى فى عروقه ، يتحرق شوقا لجرعة ماء ، تناولها ودفع ساعة يده ثمنها لاعرابى صادفه ، يضع تحت لسانه حصوة كالجلمود حتى لا يجوع ، يسأل نفسه دوما وباستمرار كيف حدث ما حدث ؟ ، ولماذا حدث ؟ ومن المسئول عما حدث ؟ وحتى هذه اللحظة ، نظر الى عاطف من خلال دموعه وقال :

لو حكمونى فى المسئولين عن المهزلة لشنقتهم جميعا فى ميدان عام ، ومزقتهم بالسكين ..

شعر عاطف برغبة فى الخلوة بنفسه ، جلس فوق فراشه وأخرج صور أسرته ، كان الليل قد أرخى سدوله ، الظلام الدامس يغلف كل شئ ، ضوء الشمعة يتلاعب به الهواء ، يحدق فى الصور ، تتعلق عينيه بعينى نجوى ، طارت روحه تحلق وترف حولها ،

قال هامسا لنفسه :

— " ترى هل تفكر فى الآن ؟ ، لعلها جالسة تتذكرنى ، " ..

سقطت صورة أخيه جمال وهو يهش دخان السيجارة عن عينيه وانهمر الدمع ، انحنى والتقطها قائلا " آسف يا أخى " ، تخيل جمال ، رآه ، ضوء الشمعة يهتز أكثر ، يزداد صرير الريح خارج الخندق ، تنطفىء الشمعة ويرتفع صوت جمال وهو يحبب اليه دخول الجيش :

— لن يوفر لك حياة طيبة غير الجيش ، أنا أحصل على مرتب يوفر لى حياة كريمة ، رواتب الجيش مرتفعة ..
— أرغب فى دراسة الهندسة يا جمال .
— وماذا يملك المهندس؟ ، أى وظيفة مدنية هذه الأيام لا تفتح بيتا .. صدقنى ..

قفزت نجوى لتلتقى مع جمال أمامه ، ارتفع صوت أمه :

— تزوج نجوى يا عاطف ..
— أنا يا أمى .. أتزوج خطيبة أخى ؟
— أليست جديرة بك ؟ ، كانت جديرة بجمال الطيار ، هى اذن جديرة بك ..
— لكننا لا نعرف مصيره حتى اليوم ..
— بعد كل هذه السنين يا عاطف ، ماذا ننتظر ؟ الى الابد ؟ الدولة واعترفت بموته ، هل نبعث نحن فيه الحياة ؟ انى اخترتها له ، وقد مات ، فهى لك ، ولن أفرط فيها أبدا ، فاهم ، لقد شاركتنى محنتى ، هى ابنتى التى لم أنجبها ..
— أمرك يا أمى .. سأفكر ..

تلكأ عاطف طويلا فى تنفيذ رغبة أمه ، حتى فطن الى تغيره نفسه ، أحس بحبه لنجوى يطغى على حبه لنفسه ، أتاحت له أمه فرصة التقارب بينهما ، كان الود والألفة بين الأسرتين — أسرة نجوى وأسرته — قد تعدت كل الحدود ، لا يفصل بينهما غير

جدار ، الباب بجوار الباب ، النافذة بجوار النافذة ، يعود من عمله ليجدها فى انتظاره بالنافذة ، ويلتقيا ، يتناولا الغداء ، ويجلسا ، حتى تنقضى السهرة .

لا ينسى أبدا تلك الأيام ، ابتسم وشعر بالسعادة يغمره ، أشعل عود ثقاب وقربه من الشمعة ، انبعث الضوء فبدد ظلام المكان ، تطلع الى صورة نجوى ثانية وهمس :

" كنت على حق ياماما .. "

منذ تزوج بها وهو يشعر بأنه أسعد انسان ، لم يشعرا يوما بأنهما زوجين ، كانا عاشقين ، يمرحان فى الدنيا بلا قيد ، لم يعرف الهرب يوما من البيت ، وكم من دعوات للسهر رفضها ، كان يجد متعته القصوى فى الجلوس مع الأسرة ، يغمز لها بعينيه تتبعه الى الشرفة ، أو الى حجرتهما ينعما بالحب والصفاء ، لم يشعر بشقاء الأيام ، يستعيد بمجرد رؤيتها نشاطه ، لولاها لما عاش مع أمه ، ولولاها ما استقر له قرار ، خاصة وان أمه فى البداية سببت له الكثير من المضايقات ، كانت تعمل على أن يكون لها جمال آخر ، تنتقد تصرفاته ، تعمل على خلقه من جديد حتى كاد ذات يوم ينفجر قائلا :

"ـ الأفضل أن تعيدينى الى أحشائك ثم تلدينى من جديد " ..

كانت نظرة نجوى كقطعة الاسفنج امتصت كل غضبه ، بابتسامة رقيقة جعلته يبتسم ، ويتقبل ملاحظات أمه بصدر رحب ، وطيب خاطر ، تذكر أفضال نجوى الكثيرة عليه ، وتأكد أن سعادته التى نال فيها لا توجد امرأة أخرى قادرة على توفيرها له .

نظر عاطف الى صورة نجوى مدققا ، اعتراه توترا شل جسده كله ، برز أمام عينيه سؤال يتلوى كالحية : "

"ـ هل نسيت نجوى حبها لجمال ؟ "

ومع بروز السؤال نبتت فى التو واللحظة بذرة غريبة عليه ، أدرك

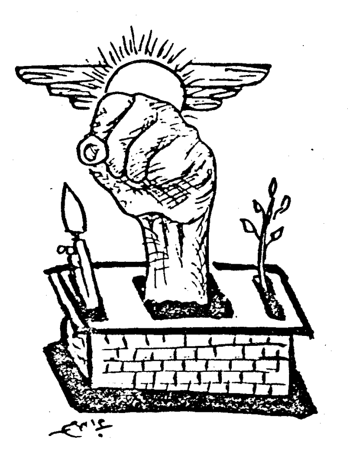
أنها بذلك النكران للذات بذلت أقصى ما تملك لتسعده ، ولكى لا يشعر بانصرافها الى ماضيها والى ذكرياتها ، وجد عاطف نفسه قزما ، انساق وراء رغبة أمه دون روية ، كيف نسى الحب القوى العنيف الذى ربط بينهما ، وكيف ترك عواطفه تسوقه ؟..

شعر بالخدر يسرى خلال خلايا رأسه ، الصداع يزحف من جبهته الى عينيه ، استلقى على ظهره بعد أن أطفأ الشمعة ، والهواجس تدور وتحوم حوله ، يهمس فى الظلام :
"— لا شك انك قوية يانجوى ، قوية وقادرة على مداراة كل ما فى أعماقك واسعاد الناس ، وقلبك ينزف ، لاشك انك عانيت الكثير لاسعادى ، لم أفطن الى ذلك المجهود الرائع ، نسيت نفسى فى غمرة سعادتى ، ترى هل كنت سعيدة حقا معى ؟ ، لا أظن ، هل نسيت جمال ؟ لا أظن ، ولا شك فى أنك تعيشين معه الآن.."

بكى عاطف فى صمت ، أخذ يلوم نفسه ، يعنفها ، يعلن غضبه على أمه ، فقد أدرك الآن انها سخرته لأفكارها وعواطفها هى لا لأفكاره هو ولعواطفه هو ، عاد مرة أخرى الى نجوى واعترف بقدرة لا تكون لامرأة ، حدق فى الظلمة بعين محمرة ، وأنفاس متلاحقة ، وشعوره بأنها كانت أقوى منه يحطمه ، اعترف بينه وبين نفسه بأن جمال مصدر قوتها ، أمدها بها قبل أن يذهب ، عظم فى نفسه قوة الحب الصادق ، وتمنى أن يطويه النوم سريعا حتى لا يعود الى التفكير..

لأول مرة يتمنى عاطف الموت ، تمنى أن تشتعل الحرب ولا شئ سيشغله عن الاستشهاد فى غمارها ، يكفى نجوى أن وضع فى أحشائها بذرة تعيش من أجلها ، وسؤال يكبر ، ويكبر حتى يملأ الكون كله :
"— ماذا لو ظهر جمال فجأة كما اختفى فجأة؟ "..

* * *



أشرق فجر السبت ، كان رمضان قد قطع من رحلته تسعة أيام حافلة بالمأكل ، والمشرب ، السمر والسهر ، أشرق الفجر وخرج عاطف فى جولته اليومية المعتادة ، يحلو له أن يتمشى فى الصحراء ساعة أو بعض الساعة ، ينشط دورته الدموية ، يتنسم هواء الفجر النقى ، يلقى بنظراته على الأرض والسماء ، يشهد شروق الشمس وينشرح قلبه بالأمل ، منذ صغره وهو يشعر بالسعادة كلما شهد شروق الشمس ، يمتلىء وجهه بالبشر والبهجة ، لكنه هذا الفجر حزينا مكتئبا ، وقد أمضى ليلته فى أرق وتفكير ..

مشى ينظر الى السماء الرمادية ، تعجب من لمعتها الفضية وقد بدت الشمس فى الأفق وكأنها شقت بطن الأرض بسكين وخرجت منها ، ترسم نصف دائرة ، أشعتها تنتشر فى طول السماء وعرضها شعر بالسرور يستل منه روحه المعذبة التى باتت مؤرقة ، أمض ليله التفكير ، تخلب فيها شكه فى حب نجوى ، شعر بضآلة نفسه أمام قوتها ، استل الفجر ، والشمس المشرقة ، والجو الرائع روحه المتألمة ، حرك فى بدنه نشاطا جميلا ، أخذ فى العدو ثم انكب عائدا الى الموقع ، فجأة توقف ونظر الى عامود من الدخان والغبار يتصاعد على مبعدة الى عنان السماء ، كمارد جبار ، يتلوى كدخان قطار من القطارات ، أمسك منظاره المعظم المعلق على صدره ، نظر من خلاله فرأى رتل من الدبابات يقطع الصحراء عدوا فى طريقه نحو المدينة ..

عاد الى الموقع ، دلف الى خندقه ، حلق ذقنه ، ثم لمع حذاءه ، ارتدى بزته وتأهب ليوم عمل شاق آخر ، تذكر أمه وزوجته والرسالة التى فكر أكثر من مرة فى كتابتها ، أخرج من جيب سترته قلما ، جذب من تحت حاشيته ورقة من دفتر اشتراه خصيصا ، ثم بدأ يكتب :

" بسم الله الرحمن الرحيم ..

أمى الحبيبة ، زوجتى العزيزة نجوى ، جمال الصغير طفلى ، الذى أشك فى انه رأى النور الآن ، اكتب لكم من هنا حيث

الصحراء تمتلىء بأنفاس الجنود ، تمتلىء بالحركة قوة وحياة ، من هنا أرسل الى جمال الصغير وصية عمه جمال الكبير من قبل ، ثم وصية أبيه بعد عمه ، أن يكون قويا وأن يزود عن وطنه من أجل أمه ، الحرية ياولدى أغلى ما فى الوجود ، وأنا هنا أدافع عن حرية أمك وجدتك ، وكذلك استشهد عمك جمال من أجلها ، كما أكتب الى خالى حسين أخبره أننا أقوياء ، أقوياء بالفعل روحا وعتادا ورغبة فى الثأر ، روحنا العالية ستحقق لنا كل ما نرجوه من آمال ، الى أمى روحية أهدى قبلاتى ، الى ۰۰۰۰

وضع عاطف مؤخرة القلم بين شفتيه يفكر فى كلمات حلوة يكمل بها سطور رسالته الى نجوى وطفله ، جمع أوراقه بسرعة بعد أن تناهى الى سمعه نفير البروجى يعلن حضور قائد عظيم ، تأكد من هندامه وخرج مسرعا ، توقفت عربة القائد بجواره ، تقدم عاطف وأدى التحية العسكرية ، هبط القائد هاشا باشا وشد على يده فى حرارة قائلا :

ـ صباح النصر يارائد عاطف ، أعد رجالك فقد بدأ التحرك ، ستصلك الأوامر فى حينها ۰۰

لم يتمالك عاطف زمام أعصابه ، بانت الفرحة على وجهه الذى أغرقته الدموع ، تقدم من قائده وعانقه قائلا :

ـ لنا النصر ان شاء الله يافندم ۰۰

رد القائد :

ـ ان شاء الله ۰۰

ثم عاد القائد الى سيارته الجيب وعاطف يقول مودعا :

ـ سنلتقى بعد النصر باذن الله ۰۰

ثم أدى التحية ، والعربة تنطلق فى طريقها الى خارج الموقع ، تابعها عاطف مشدوها ، مسمرا فى مكانه ، يكاد لا يصدق ، دارت رأسه للحظة وقد لاحظ على وجه قائده فرحة ممزوجة بالترقب والاضطراب ، رأى فى عينيه لمعانا غريبا يوحى

بأشياء كثيرة ، لم يستطع تفكيره المشوش التأكد بشـــىء من هذه الأشياء ، خرج عن جموده وتطلع يتابع السيارة الجيب فرآها وقد غابت عن الأنظار ، نادى على الجاويش علاء الدين الذى هرول اليه ، قال والشعور الثائر يخرج من جوانحه :

ـ أزفت الساعة ياعلاء ٠٠ أزفت الساعة ٠٠

طفح البشر على وجه علاء الدين ، قال وهو يهز رأسه فى غير تصديق :

ـ أحقا ياافندم ٠٠

ـ بالتأكيد ياعلاء ، اهتف فى الأولاد كى يتأهبوا ، هيا ٠٠

رفع علاء الدين عينيه باسطا ذراعيه نحو السماء وأخذ يهتف :

ـ يارب ٠٠ لك الحمد والشكر ٠٠

ثم اتجه ناحية القبلة وبدأ يصلى على الرمال :

ـ نويت أصلى ركعتين شكرا لله الله أكبر ٠٠

تخفف عاطف من كل أحماله ، شعر بجسده فى خفة ريشـــة من ريش الطيور ، يجرى داخل الموقع مناديا جنوده :

ـ هيا ياأولاد ، اليوم يومكم ، النصر حليفكم ، هيا اسرعـوا ٠٠ غنوا بالسلاح لصباح النصر ٠٠

وفى لحظة واحدة ، كان الجنود جميعا قد خرجوا زاحفين من خنادقهم ، وملاجئهم ، تجمعوا حول عاطف يتساءلون :

ـ حقا ياافندم اليوم نحارب؟

ـ هل حانت الساعة ؟

ـ هل ذاب الجليد ؟

وأجهش أحدهم بالبكاء هاتفا :

ـ يالفرحة أمـى ٠٠

جلس عاطف فوق الرمال ، قال وهو لا يكاد يملك أنفاسه :

ـ ينبغى أن نهدأ حتى تصلنا الأوامر ، الآن أعدوا أنفسكـم ،

لاشك أننا سنتقدم ، قد نعبر وقد نكلف بمهام أخـــرى ، يتوقف ذلك على الأوامر ..

تصايحوا جميعا :
— لابد لنا من العبور .. لابد أن نعبر ..

بدأ العمل على أشده ، لم يعد الأمر يخالج أحد على أنـه مناورة ، انه أكبر من ذلك ، عربات القادة تدخل الموقع للحظات وتخرج ، الاتصالات السلكية واللاسلكية مستمرة دون توقف ، يبـين من خلال المنظار حركة غير عادية تملأ الصحراء ، دبابات ، عربات مجنزرة ، مصفحات ، تسير فى أرتال يتبعها أرتال صوب القنـاة ، امتلأت الصحراء بالجنود وكأنها بذور نبتت فجأة ، يصور المنظـار جو معركة حقيقية ، المزيد من شحنات الذخائر تأتى بها عربـات كبيرة ، شحنات الأطعمة الجافة ، الأدوية ومهمات القتال ..

وفى تمام الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين تلقــى عاطف أمرا بالتحرك ، تطلع فى الأمر وعرف خط السير ، والمعبر الذى سيعبره الى الضفة الشرقية ، أمر جنوده بشد الرحال ، وفى لمح البصر كان الموقع خلوا من أى شئ يدل على استخدامه ..

تقافز الجنود الى مدرعاتهم وهى تغادر خنادقها ، ارتفــع التهليل والتكبير وهم يشهدون بعيون رؤوسهم الطائرات تشـــق السماء فى غضب مزمجر وتعبر القناة ، دوت الانفجارات عنيفـة فى الجانب الآخر من القناة ، ارتفعت سحب الدخان الى عنان السماء ، تكونت سحابة سوداء فوق الأعداء ، انطلقت من الضفـة الغربية المدافع تصنع سماء أخرى من النيران المتوهجة ، عادت الطائرات يتراقص بها طياريها فى السماء ، ارتفع صفير الجنـــود ابتهاجا وترحيبا وفرحا ..

كان عاطف يتلقى الورود تسقط عليهم من النوافـــذ ، يـوزع ابتساماته الفرحة ، وقبلاته الطائرة فى كل مكان ، والى كل شرفة ، النسوة يزغردن ، الرجال يضمون أيديهم الى بعضها فى زهو ..

ترتفع الحناجر تلهج بالدعاء ، تعبر عربة عاطف المدينة وهو يكاد يطير ليكون أول العابرين ، يبدو فى عربته رابط الجـــأش ، ثابت الجنان ، وفى الباطن تضطرم أعماقه بالمشاعر الغير محتملة فقلبه يكاد يقفز من صدره ، وعقله يكاد يذهب ويفقد وعيه ، يسأل نفسه مشدوها : " أحقيقة ما أرى أم خيال ؟ " ٠٠

* *

مضت ساعات قلائل كدهر ، وحين أذن المؤذن بانتهـاء المعبر ، تقدم وخلفه جنوده لايلوون على شئ ، كل همـه أن يطأ الأرض التى ارتوت بدماء أخيه ، وما أن وضعت العربـــة عجلاتها فى الضفة الشرقية قفز منها الى الأرض ، انحنى يقبلهـــا وقبضته مليئة بالرمال ، هرول مسرعا الى العربة التى سبقته ، نظـر الى قبضته وتشممها ، صرخ فى فرح وتهليل :

— دم أخى ٠٠ أشم دم أخى ٠٠

كاد يلتهم حفنة الرمال فى فمه ، وأعلنت معدته بانقباضهـا الاستعداد لهضمها ٠٠

تطلع الى السماء الرمادية الفضية كصفحة منقطة ببقع ســوداء متجاورة ، بدت كلوحة تشكيلية أبيض وأسود ، الطائرات فوقهـــم تصيبها صواريخ المدفعية الصاروخية فتشتعل وتهوى الـــى الأرض محدثة فرقعة هائلة ، يتصاعد عامود دخانها متلويا فـى السماء ، الرمال تبدو أمام عينيه متحركة تحت أرجل الجنود تدفع بهم للأمام ، الجنود يحملون أرواحهم على أكفهم ، يهتفون من أعماق قلوبهـــم بالتكبير ، لا يلوون على شئ ، لا يشعرون الا برغبة جامحة فــى مواجهة العدو ، يتناهى الى سمعه صوت علاء الدين وهو يحـث الجنود على العدو ، سبقهم جميعا حتى حاذى عربة عاطف وقال :

— أيام مباركة والنصر حليفنا باذن الله ياافندم ٠٠

— بركة دعائك ياعلاء الدين ٠٠

— وهمتك وعزمك ياأفندم ٠٠

يقفز الجنود تباعا من العربات ، وبعد مسيرة بضع كيلو مترات داخل سيناء ، لاح لهم الموقع الذى يقصدونه ، تمهل عاطف حتى توقف الجميع ، بدأ يشرح خطة الاستيلاء عليه ، وزع جنوده الى ميمنة وميسرة ، وتقدم بعضهم لاقتحام الموقع من المواجهة ، بدأ التحرك للقتال ، الأجساد تندفع بلا أرواح ، الأرواح ترف فوق أجسادها تمدها بالقوة والعزم ، وعاطف فى مقدمة رجالــه يقاتل فى عنف ورغبة فى التشفى ..

لم تمض ساعة الا وكان الموقع تحت سطوتهم ، قام عاطــف برفع العلم وانزال علم العدو ، امتدت أيدى الجنود كل منهــم يبغى قطعة منه لتكون تذكارا ليوم مشهود .. قبض علاء الديــن على النجمة وقال للجنود :

— النجمة من نصيب قائدنا ..

وقف عاطف يتمم على رجاله ، حمد الله وعلاء الدين يقول :

— لا اصابات يا افندم ..
— والجرحى ؟
— ثلاثة بجروح خفيفة ..

قال عاطف :

— والأســرى ؟
— ثمانية والباقى قتلى يا افندم ..

أصدر عاطف أوامره لفصيلة بالتركز فى الموقع ، ثم دفــع بقية قواته ، وقد شعر الجميع بلذة النصر واستعادة الكرامــة ، وتطلعوا الى المزيد من التقدم .

* * *

كانت روحية منذ اندلاع القتال لا تترك المذياع حيث التصق بيدها ، تتابع المعارك وكل جوارحها متفتحة منشرحة والبسمة العريضة لا تفارق أبدا شفتيها ، يراها حسين على هذه الحالة فيمتلئ صدره بالخوف عليها ، يعرف أكثر من معرفتها لنفسها مدى سعادتها بعبور الجيش الى الضفة الشرقية ، يذكر ما قالته فى أول يوم :

— انه عبور رائع يا حسين ، عبور من الضعف الى القوة ، عبور من الذل الى الكرامة ، من الهزيمة الى النصر

كان حسين يخشى يوم انتهاء المعارك ، ويتمنى لها الاستمرار فكل ما يخشاه أن يصاب عاطف أو يستشهد ، تذهب حلاوة النصر ويبقى لها مرارة فقد ابنها الثانى ، كأن رحلة حياتها قد أسفرت عن لا شئ ، ومع همومه هذه كان يرى أملا جديدا سيملأ حياتها بالبهجة ، جمال الصغير سيكون لها جمال الكبير وعاطف معا ، فهى جديدة بأن تكون أما من جديد ..

كانت روحية تترك حسين بعد أن تزف اليه بيانا جديدا ، ثم تتابع المعارك ، تتطلع اليها بنفس روحها القديمة ، بنفس طلاقتها ، تبددت تماما من حياتها سحابات الحزن ، كان النصر بالنسبة لها خير تعويض تلقاه عن ولديها ، وعن نفسها اذا اقتضى الأمر ، تتابع البيانات وفى نفس الوقت ترعى بعين الأم وقلبها نجوى وهى تعانى الساعات الأخيرة لآلام الحمل ، تهتم بأمرها وتهون عليها ، تلبى طلباتها وتشجعها ، والدكتور رفعت يتصل بالهاتف كل ساعة ، وقد أزفت الساعة التى سيخرج فيها جمال الصغير الى النور ليشهد ضياء الكون المشرق ، وليكون من ضمن العابرين من الظلام الى النور ، لم يعبر جمال الكبير وانما تقهقر ، وعبر عاطف ، الله يعلم ان كان حيا أو شهيدا ، أما جمال الصغير فسيعبر سالما ويعيش ليشهد أفراح النصر كل عام فى رعاية أميه نجوى وروحية ، وهى التى رفضت أن يقال لها جدة وقالت مازحة :

— سينادينى ماما ..

وأمسكت بخصلة من خصلات شعرها الأسود وقالت ضاحكة :
— ضخم على لقب الجدة ، لم يبيض شعرى بعد ، مازلـــت أتمتع ببعض الشباب ٠٠

ضحكوا جميعا لملاحظتها المرحة ، فرحوا لشعورها بالفرحة ، خرجت عن وقارها وتراقصت بعد أن أذيع بيانا أعلن فيـه تحريـــر مدينة القنطرة ، رقصت وتهادت وسط الحجرة تميل وتقبـــل حسين ، ثم أختها ، وزوجة أخيها ، تهرول الى نجوى الراقدة فى فراشها وتنحنى عليها وتقبلها ، تسر اليها نجوى بآلامها التى لا تطاق ٠٠

انقلب البيت فجأة الى عيادة ، حضر الدكتور رفعت ، وتـم الوضع فى يسر وسهولة ، زغردت روحية بعد سنين طويلة وهى تتلقى جمال الصغير بين ذراعيها بسعادة غامرة ، انتقلت النشوة الـى قلب الدكتور رفعت وانحنى على وجنة الصغير وطبع قبلة أبوية حانيـة وعيناه تطلان فى عينى روحية ، أسدلت أهدابها ورعشة خفيفـــة تستولى على كيانها ، بعد أن لمست يد الدكتور رفعت ذراعها ٠٠

جلست وجمال بين ذراعيها تعاود تقبيله ، وفى غفلة مـــن الجميع تحاول لملمة شتات جسدها الذى ينتفض ، صرخت أعماقها فى أذنيها " أهو الحب ؟ " ، وتطلعت الى الدكتـور رفعت بعينين فضحتا كل ما يعتمل فى نفسها ، هز الدكتور رفعت رأســه وهمس :
— أنا تحت أمرك ٠٠

وضعت روحية جمال الصغير بعد انصراف الدكتور رفعت الـى جوار أمه ، ذهبت الى حجرتها ، وقفت أمام المرآة تحدث نفسها " أهذا وجه امرأة فى الخامسة والأربعين ؟ ، أهذا قوام امرأة يمكن لها أن تحب ؟ " أخذت تروح وتجىء أمام المرآة مشبكة ذراعيها فوق صدرها ، تضغط بأسنانها على شفتها السفلى وهى تلوم نفسها ، فقد فضحتها مشاعرها ، خرج الحب من قلبهـــا

ليعلن التمرد على الاستكانة التى فرضت عليه ، بدا لها أن أمرا سيقع لا محالة ٠٠

غادرت حجرتها ، هرولت الى حسين فى الشرفة ، جلست اليه ، وقد بدت فى عينيه كعهده بها أيام صباها ، رأى شبابا غضا فى تورد وجنتيها بالحياة ، تلاشت كل التجاعيد التى كانت تظهر أحيانا فوق جبهتها ، بدت وكأنها عروس زفت بالأمس وبصمات السعادة بادية مفضوحة ، لا يخطىء كائن أيا كان فى الحكم عليها من النظرة الأولى بأنها فى شهر العسل ٠٠ قالت روحية فى خجل العذارى متلجلجة :

ـ هل عرفت الحب يا حسين ؟ ماذا يفعل بنا ؟ هل يغيرنا ؟

قال مبتسما :

ـ على رسلك ، سؤال سؤال ، نعم عرفت الحب رغم أنى لم أجربه ، منذ مات والدنا وأنا أحمل مسئولية ضخمة ٠٠

ثم تنهد ، واستطرد :

ـ الحب نبع الحياة ، نبع السعادة ، بالحب تستقيم الحياة وبه يكون للوجود معنى ٠٠

مد يده وداعب رأسها المائلة فى خجل وقال :

ـ يبدو انك تحبينه ، لم الخجل ؟ ، الحب ليس محرما ٠٠

ـ ولكنى فى عقدى الخامس ٠٠

ـ ولو ٠٠ الحب فى القلب لا يعرف السنوات ، القلب لا يشيخ ، انه الوجود بكل حيويته ٠٠

هزت رأسها ثم هبت واقفة ، بدت وكأنها كانت فى غيبوبة أو حلم ، قالت مندهشة :

ـ حسين ، كيف يمكننا الاطمئنان على عاطف؟

تطلع اليها وبادلها الدهشة ، لاحظ التغيير الذى طرأ عليها ، صاح :

ـ عجيب أمرك ياروحية ، حرام ظلمك لنفسك ، لم يعد لديك ما يشغلك ، عاطف تزوج وأنجب ، نصيبك الوحدة الأليمة ولا شئ آخر ، ثوبى الى رشدك ..

هرولت روحية من أمامه كظبية تفر خوفا من الوقوع فى شباك صيادها ، دلفت الى حجرتها ، جلست تنظر الى صورة ولديها جمال وعاطف ، أخذت تتحدث اليهما ، والدموع تنساب وتحرق سخونتها وجنيتها :

" لم يعد لكما حاجة عندى ، عاهدت الله ووفيت بالعهد ، كبرتما ، ولدى ، اتركا قلب المرأة لى وخذا قلب الأم فهو ملككما وحدكما ، لم يعد بوسعى أن أقدم لكما شيئا ، أرجوكما ألا تغضبا منى ، أتوسل اليكما ، أعرفك ياعاطف ، انك لا تهتم ، أما أنت ياجمال فاعذرنى ياحبيبى ، لقد أحببت فى شبابك قبل أن تذهب ، جربت الحب ، دع لى بضع سنوات أعيشها مستريحة ، اعطنى بعض حقى ياولدى .. لا تغضب أرجوك .. "

انتبهت لنفسها ، قامت قائلة فى تعجب :

ـ لما أتحدث الى صورتك ؟ ، انك هنا ، سأحملك بين ذراعى وأقول لك مافى نفسى ..

مشت الى حجرة نجوى ، رفعت جمال الصغير بين ذراعيها ، أخذت تقبله واستأذنت نجوى قائلة :

ـ سأخذه الى حجرتى ، لى معه حديث طويل ..

الصغير يتطلع الى وجهها ولم يكد يعرف الابتسام ..

* * *

كالريح العاتية عصف الماضى بلحظتها السعيدة ، انهمرت دموعها كشلال حبيس وجد فرجة فى الصخر ، تتابعت فى خيالها الأحداث ، تتوالى الانتصارات فى البيانات العسكرية ، تزغرد الفرحة فى القلوب والصدور ، تضحك وتعوم عيناها فى الدموع وصوت المذيع يهز جدران الأبنية ، تتخيل جمال فى طائرته يمخر عباب المعركة وسحب الدخان ليلقى على العدو درسه ، يعود سالما الى قاعدته ليعيد تعبئتها بالقنابل ، ينشرح صدرها ، تتطلع الى البيان الآخر بلهفة وشوق ، تنتظر بعنف الأشواق عودة جمال ، تتطلع الى عودته ليقص عليها أعماله العظيمة ، مشاركته فى تحقيق النصر ، وحلم الأجيال ، يترجم لها كل البيانات بطولات خارقة ، سينقلها على جناحى طائرته لترى بعينيها سماء المعركة ..

كان غريبا عليها – ومازال – رغم مرور السنوات على ذلك اليوم وما تلاه أن تنقلب كفة الميزان ، لم تشعر للحظة خاطفة بالخوف ، لم تشعر بافتقاده ، بل كانت تشعر برغبة فى المشاركة بأى شىء ، كانت ترى فى بقاء حسين بالبيت تقاعسا عن الواجب ، يقول لها حسين :

– اننا نحارب فى مواقع أعمالنا ، لو حملنا جميعا السلاح توقفت الحياة ..

أقنعها كعادته بمنطقه ، ازدادت فخرا بابنها جمال وهو يردف :

– جمال يذود عنا جميعا ، سيحقق لنا النصر باذن الله ..

يتراءى لها جمال بطلا ، يعود ووسام البطولة يزين صدره ، تضحك من أعماقها وتزغرد دقات قلبها ، تهتز اهتزازات السرور والمذيع يعلن عن بيان جديد ..

غاب يوم الاثنين بأحداثه الجسام ولم يغب عن أفكارها قط ، هرول النهار وأقبل الليل ، قضته روحية فى أرق يلازمه ويخالطه القلق ، المذياع يبث الأناشيد الحماسية ، تفرح مع كل نصر

جديد تزفه البيانات ، تنتقل من سرور الى سرور أعظم ، ومن فرحة الى فرحة أكبر ، تأخذ مفتاح المذياع بين أناملها متنقلة تتابع أخبار المعركة فى شتى الاذاعات ، سمعت بعض الأنباء ترجح كفة العدو فى المعركة ، استنكرت ما سمعت ، تذكرت الاذاعات التى اعتادت التهجم على وطنها ، لكنها وقعت فريسة للشك ..

مضى الليل وأجفانها تأبى الاستكانة ، وفى الصباح الباكر وقفت بالشرفة وقد امتلأ الشارع حول بائع الجرائد ، الأطفال يخطون على الجدران عبارات النصر ، تتحول العبارات الى سخرية من العدو وقادته ، تنفذ كل الجرائد فى لحظات ، الموسيقى تملأ أسماع الدنيا بأسرها ، الأناشيد الوطنية يردد ها الناس فى الشوارع والفرحة تتراقص فى عيون الصبية الصغار..

خرجت بسيارتها تطوف الشوارع ، تتابع المعركة فى عيون الناس ، تشعر بالفخر والعزة ، تتمنى أن تعلن على الملأ نبأ ابنها الذى يدك حصون العدو ، تتمنى أن تحتضن كل من يلقاها وتحييه بتحية النصر قبلات حارة ، بود ها أن تعلن أن ابنها جمال وحده صانع هذا النصر المؤزر ، ترى الناس يحتضن بعضهم البعض ، يقبل بعضهم البعض ، تخرج أصواتهم من حناجرهم لتزلزل السماء ، وترقص موجات الهواء :

— الله ينصرك ياجيشنا ياعظيم ، الله ينصرك ياجمال ..

تغرد معهم دامعة من الفرحة :

— منصور ياجمال .. منصور ياجمال ..

كلما سارت فى مكان ازدادت روحها ثورة ، وازداد قلبها خفقانا ، ضاق البيت بمشاعرها فغادرته ، ضاق صدرها بفيض البهجة ولم تقدر على احتمالها فبكت ، شعرت بالشوارع كالبيت ضيقة ، كصدرها ضيقة ، ارتجفت ، وباغتها شعور بالخوف.

مر يوم وأعقبه الآخر ، بدأت الأناشيد الحماسية تخف وتفتر والبيانات العسكرية تقل ، سيطر هدوء غريب على الناس جميعا ،

بدأ بعض الجنود يظهرون فى شوارع المدينة ، بدأت تسرى بعض الشائعات عن انكسار الجيش فى سيناء ، وتسربت بعض الأنباء عن الانسحاب ..

هب فى دخيلة نفسها مارد الخوف ، شعرت بقلبها ينقبض ويفيض بالحزن ، ضاق صدرها وضغط رئتيها ضغطا أحست به يعوق تنفسها ، شعرت بشئ أقوى من ارادتها يدفعها للبكاء ، تبددت طمأنينتها ، امتلأت رأسها بالقتلى والجرحى ، ترى ابنها وحده القتيل ، وحده الجريح ، وحده الميت ، وحده المهزوم.

تذكرت نجوى ، واتفاقها مع جمال على تأخير الزواج حتى يتم بناء الشقة التى تليق به كطيار وكبطل ، أخذت تصرخ فى كل البيت:

– أين نجوى؟ .. أريد نجوى..
– نجوى فى الاسكندرية ..
– أرسلوا فى طلبها .. أريدها بجوارى ..

وجد حسين نفسه مضطرا الى ارسال برقية الى الاسكندرية ، مر فى طريقه على المقهى ، رأى بعض أصدقائه ، جلس بينهم يدخن النرجيلة ويتحدثون عن المعركة ، قال أحدهم وهو موظف قديم له مكانة طيبة :

– سمعت أن الجيش ينسحب ..

رد حسين متشككا :

– غير معقول ..

قال الرجل ومسحة من الحزن تخيم على وجهه :

– ابنى عاد بالأمس ، قال أن أوامر الانسحاب وصلت اليهم ..

قال آخر :

– يعنى هذا أن الشائعات صحيحة ..

قال الرجل :

— مع الأسى والأسف٠٠

قام حسين من فوره مستأذنا ، عاد الى البيت ليجد روحية تتلوى حزنا وكمدا ، وتردد فى حزن وبكاء :
— جمال مات ياحسين ، ابنى ضاع ٠٠

حاول حسين أن يشجعها ويبث فى نفسها الصبر وفى روحها الهدوء ، دون جدوى٠

كانت تعانى ثورة مدمرة اجتاحت قلبها ، لم يتبادر الى ذهنها طوال الأيام الماضية شىء اسمه الهزيمة ، لم يخطر ببالها قط أن أى حرب غير مضمونة النتائج ، فيها الغالب والمغلوب ، فيها النصر تقابله الهزيمة ، شىء ما جعلها فى لاتصدق ما قيل من شائعات ، ايمانها بقوة الجيش ، الثقة الكاملة فى قواته وقياداته ، تعبئة الوطن كله من أجل المعركة كمصير ووجود ، منذ قامت الثورة وهى تعمل على تحقيق أمل وضعته نصب أعينها ، قضية الوطن الأم وقلبها الممزق ، الواقع تحت الاحتلال ، كرهت أن تكون الشائعات حقيقة ، كيف يمكنها أن تصدق وقد جاء اليوم الموعود بعد خمسة عشرة عاما من الثورة التى قلبت الموازين فى كل الدنيا ، لم يخامرها اطلاقا أن جيشا وطنيا شيد خصيصا للحرية يمكن أن يهزم ، وأن الهزيمة يمكن أن تكون محصلة تلك الأيام الرائعة ٠٠

بدأت التساؤلات والاستفسارات ، كل واحد يسأل الآخر عن مصير الحرب ، كثيرون يتساءلون عن الأبناء ، والآباء ، وعن الأزواج ، الناس يشهدون الحزن على وجوه الجنود العائدين من الجبهة ، وارتدت الدنيا ثوب الحداد ٠٠

انبسطت الغيوم فى السماء ، توارت الشمس خجلا عن الأنظار فوق السحابة المعتمة ، بدأت روحية تفيق من الكابوس المفزع الذى انتهى ، ثم تعود الى البكاء والصراخ :
— أين جمال ؟ فى المستشفى ، ميت ، جريح ٠٠ أين

ابنى .. ابحث لى عنه يا حسين ..

يخرج حسين كل صباح ، ويعود فى المساء بقدمين متورمتين ، يعانى التعب والآلام فى كل مفاصله ، ويقول فى صوت ممتلئ بالدموع :

- فوضى .. فوضى .. لا أحد يعرف شيئا ، لا أحد يعرف ما يحدث .. كل شئ فى ارتباك ..

ثم يبثها الأمل قائلا :

- غدا سأبحث من جديد ..

* *

وجاء يوم ، توقفت فيه الحياة تماما ، ثمة بيان سيذاع فى المساء ، ترقب الجميع اعلان انتهاء المعارك وانتصار الجيش لكن صحف الصباح حملت أسوأ الأنباء ، تزداد دقات قلبها اضطرابا ، تلاحق أنفاسها ضحايا الحرب وهم يتساقطون ، أمام عينيها اكتست الدنيا بالدماء ، نطقت فى حسرة :

- ولدى .. ولدى ..

جاء المساء ، شلل كامل ألم بالحياة ، توقفت الأنفاس فى انتظار البيان الهام ، الشوارع يعمها الاظلام خالية من البشر ، من مظاهر الحياة ، الناس حول الاذاعات المرئيه والمسموعة متسمرون كأن على رؤوسهم ملك الموت ، أشبه بتماثيل فرعونية أمام معابد نحتت فى الصخر ، الانتظار بكل ثقله يرسخ فوق الصدور ، الجميع مشتتوا الفكر ، مبعثروا الخواطر ..

جلس حسين أمام التليفزيون ، وروحية الى جواره تنهنه وتجفف دموعها ، التقت عينى روحية بعينى الرئيس فألم بها الذعر ، لما رأته يطل منهما من توتر ، وقلق ، انقبض قلبها وارتشفت ريقها وهى تصرخ مشيرة اليهَ :

ـ ليس هذا بعبد الناصر ··

قال حسين مضطربا :

ـ مصيبة أن تكون الهزيمة حقيقية ··

وأخرج علبة سجائره بيد مرتعشة ، شعر بنفسه يكاد ينفجر من الغيظ ، بعض السجائر تسقط أرضا ، ضاق صدره بأنباء لم تعلن بعد ، تضاربت فى رأسه شتى الاحتمالات واختلطت الأمور حتى انه لم يستطع تبين الحقيقة من الوهم مما قيل ، كاد يصرخ :

ـ كاذب ، لا يمكن أن يحدث هذا ··

تراءى لها جمال فى بزته العسكرية يهوى بطائرته محترقا ، هبت صارخة وجلة وانهالت فوق خديها لطما وتمزيقا بأظافرها ، مزقت ثوبها وشقته الى الذيل ، لم يستطع حسين أن يسيطر على أعصابها ، سقطت منهوكة القوى تتمرغ مولولة :

ـ ابنى ، ولدى ·· ابنى ··

ـ لم يمت ياروحية ·· انه لم يغادر المطار ، الطائرات ضربت وهى على الأرض ··

بحلقت فى وجهه :

ـ لماذا لم يعد ؟ ·· هه ·· لماذا لم يعد ؟

ثم فى شبه هذيان :

ـ يعنى ابنى حى ، ابنى سليم ··

ـ ان شاء الله ، ان شاء الله ياروحية ··

ـ خذنى اليه ·· خذنى اليه فى أى مكان ··

شملهم جميعا الوجوم ، لم يفقهوا شيئا مما سمعوا ، بل أن آذانهم لا تصدق ، خيالاتهم لا تتصور ، عيونهم غائمة فى الدموع وقلوبهم منفطرة ، صوت الجماهير يأتيهم عبر النوافذ والشرفات :

ـ بالروح والدم نفديك يا جمال ··

ـ لا لا ·· لا تتنحى ··

نظر حسين الى زوجته فاطمه وتسائل مستغربا :

ـ هل قال انه يتنحى ؟

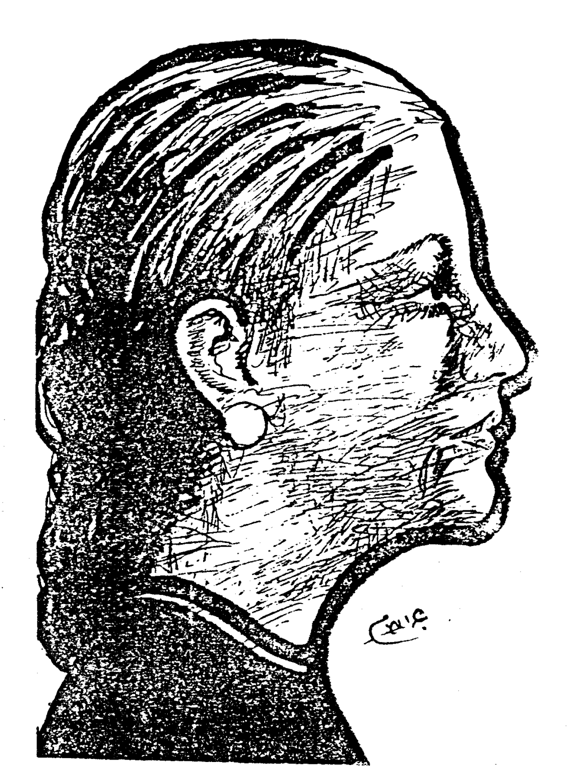
أومأت برأسها ، اذ كان صوتها مختنقا ، قال حسين :

ـ لم أسمع ذلك ، ربما سمعته ٠٠ لم أسمع

واتجه الى روحية محاولا تهدئتها :

ـ اهدئى ، انه سليم باذن الله ، سيعود اليك جمال ٠٠

* * *



استيقظت روحية من نومها بعد ليل مقلق ، انتابتها فيه شتى الأحلام مختلطة بالكوابيس ، اكتسى وجهها بشىء من الوجوم تنظر حولها مبتئسة ، لا شىء تعمله سوى الجلوس وتمضية الوقت فى تصفح الجرائد ، أو الاستماع الى المذياع ، أو مداعبة جمال الصغير ، ولا شىء آخر يأخذ منها الاهتمام ..

شىء ما ينتابها كل صباح ، شىء أمضها التفكير فيه طيلة الليالى " لماذا هى حزينة على الدوام؟ " ، قبل أن تجد فى البحث عن اجابة ، سقطت كل الأشياء فجأة فى بؤرة انعدام القيمة ، فلا قيمة للحب ، ولا قيمة للحزن ، ولا قيمة للبكاء ، ولا قيمة للفرح ، ولا قيمة للنصر أو الهزيمة ، مرت بخاطرها الأيام القليلة الماضية وفيها أحست بلا قيمة لطعام الافطار بعد صوم يوم طويل ، واكتفت بتناول كوب الخشاف ..

عاشت روحية هذه اللامبالاة الشاملة يوم الاحتفال باليوم السابع لميلاد جمال الصغير ، نظرت الى الطقوس المتبعة فى مثل تلك الاحتفالات بعين مشفقة ونظرة لاهية ، مر الاحتفال كمرور ريح خفيفة ولم تهتز شعرة واحدة فى مفرق رأسها ، كما مر أيضا الاحتفال بعقد قران أختها مديحة المتواضع ، والذى اقتصر على الأسرة فقط ..

لم يطف بذهنها التفكير فى حالة اللامبالاة تلك ، ظنتها شىء عارض لفترة ويمضى ، ومع ذلك فقد شعرت بالسعادة بهذا الخواء ومن خلاله أخذت تنظر الى أخيها حسين ، انه يعيش مع فاطمة الأليفة بلا حب ، مر عليهما أكثر من ربع قرن من الزمن ، لم يترك بصمة واحدة من بصمات الشقاء على وجهيهما ، رغم انهما لم ينجبا طفلا طول هذه السنين ، ولم يعكر هذا الأمر صفو حياتهما ، بل صيرتهما الأيام أما وأبا لكل أطفال العائلة الذين كبروا اليوم ، مازالوا ينادونهما بابا حسين وماما فاطمه ، ثم نظرت الى أختها ليلى ، اللامبالية بصرمحة زوجها عصمت تحت ستار الانشغال دوما بالعمل ، المصنع ، العمال ، وجدت أن الثقة العمياء التى

مقتتها يوما فى أختها هى الصواب الذى يجابه معترك الحياة ولا يشلها ، بل تظل الحياة شد وجذب دون توقف ، أما شخصية عصمت فقد حيرتها طويلا ، ترى فيه انسانا لا يبالى بالحياة من حوله ، كل ما يهمه فيها أفكاره وكيفية تحقيقها ، لا يهمه ضحايا تسقط فى طريقه ، كما لا يهمه النجاح أو الفشل ، المهم هو أن تخرج الأفكار من بؤرة رأسه ، ولهذا فانه يشعر دائما بالنجاح حتى وان كان فاشلا ، فهو ناجح فى الفشل ، وحين فكرت فى مديحة فقدت الاحساس بالزمن ، فتلك البنت المشاكسة الثائرة دوما طبعتها السنوات الأخيرة بالرتابة ، والاستسلام ، والخمول ، حتى أن موضوع زواجها لم يحرك سطح بحيرتها الراكدة أقل تحريك ، تقبلت الزوج دون أى اعتراض ، تقبلت الحفل البسيط العائلى الذى فيه تمت خطبتها وعقد قرانها وزفافها دفعة واحدة ، وانتقلت الى شقتها .

يمر اليوم طويلا بلا انتهاء ، لا شىء يشغل بالها ، حتى صراخ جمال الصغير بين الحين والحين ، أضحى لا يحرك لها ساكنا ، سعدت باحساس البلادة الذى تمكن منها ، وتمنت أن يدوم ، ففى رحابه أدركت سخافة حركة الحياة ، وأدركت سخافة الحزن الذى عاشرها طوال السنين معاشرة الزوج الحاضر دوما ، ترى العصافير تغرد دائما ، رغم أن لها أطفالا تبعثروا بعد أن تعلموا التقاط الطعام بأنفسهم ، رأت فى الادراك القاصر للعصافير حكمة عجز عن ادراكها البشر ، فلو أدرك العصفور عاطفة الأمومة التى عصفت بها لما غرد على الاطلاق ..

عاد حسين من العمل ليعلن توقف اطلاق النار ، خاب توقعه بأن يثور الجدل والنقاش بينه وبين روحية ، لمح عيونها المنكسرة فتساءل :

ـ مابك ياروحية ؟

قالت فى بطء :

ـ تتوقف الحرب ، تستمر ، سيان عندى ، السلام فوق الأرض

هدنة مؤقتة ، أو يوما طويلا للراحة ٠٠

راعته لامبالاتها اللامتناهية ، والتى لم يعهدها بها على الاطلاق ، تركها الى حجرته وحين انفردت به فاطمه سألها :

ــ ما بال روحية اليوم ؟

قالت فاطمة :

ــ لا أدرى ، منذ استيقظت وهى فى شرود ٠٠

ثم عقبت وهى تناوله جلبابه :

ــ لا تشغل بالك ٠٠ هل صليت العصر ؟

ــ الحمد لله ٠٠

قالت وهى تغادر الحجرة :

ــ أتركك لتنام ٠٠

شئ ما دفع روحية الى ارتداء ملابس الخروج ، انعطفت الى المطبخ وقالت لفاطمة :

ــ أنا خارجة ٠٠

ــ أين ستذهبين ؟

ردت روحية :

ــ لا أعرف ، نفسى أرى الشوارع ، لى أكثر من شهر لم أغادر البيت ٠٠

قالت فاطمه فى هدوئها المعهود :

ــ براحتك ٠٠

* *

استقلت روحية سيارتها ، وفى رأسها فكرة نبتت من بحيرة اللامبالاة التى غرقت فيها ، لم تتهيب جسارة الفكرة ، لم تفكر فى أى مقدمات لتنفيذها ، اتجهت من فورها الى فيلا الهرم ، حيث يعيش زوجها السابق الدكتور مصطفى وزوجته مادلين ٠٠

أصيبت زوجة الدكتور مصطفى بالذعر وهى تستقبل روحيـــة ، رحبت بها فى اضطراب ، اتجهت روحية الى الصالون قائلة :

- أعرف البيت ، لا زلت أذكر ..

وبعد أن جلست قالت مسرعة :

- اهدئى يامدام ، مضى الزمن الذى نخشى فيه بعضنا ..

قالت زوجة الدكتور مصطفى وهى تجلس :

- أنا هادئة لكنها المفاجأة ..

وامتدت يدها الى علبة للسجائر موضوعة فوق منضدة جانبية ، ثم تراجعت يدها بسرعة وشفتاها تتلاعب بكلمات غير مسموعة :

- دخنى اذا كنت فى حاجة الى سيجارة ..

قالتها روحية متصنعة ابتسامة ، احمر وجه زوجة الدكتـــور مصطفى ، افترت شفتاها عن بسمة انتصار وقالت :

- انى صائمة والحمد لله ، انها فقط المفاجأة التى تظهر منا تصرفات لا ارادية ..

غمغمت روحية قائلة :

- صائمـة ..

وألم بها دوار خاطف ، أمالت رأسها على راحة يدها ، ثـم اعتدلت وزوجة الدكتور مصطفى تقترب منها قائلة :

- هل بك شئ يامدام ؟

قالت روحية :

لا شئ يامـادلين ..

قالت زوجة الدكتور مصطفى بصدر منشرح عبرت عنه أساريـــر وجهها :

- أسميت نفسى عايدة بعد اسلامى ..

أحست روحية بالراحة تخزو صدرها ، شعرت بعاطفـــة جديدة وليدة اللحظة تحنو على عايدة ، قالت فى هدوء :

ـ وأين الدكتور ؟
ـ في المستشفى ، تعرفين حالة الطوارئ ، لا أراه الا في ساعة متأخرة من الليل ، يحضر مرهقا مكدودا ، يستيقظ مبكرا ليسرع اليها مرة أخرى ..

وبعد فترة صمت قليلة أردفت :
ـ هذه الارهاق في الأيام الأخيرة ..

قامت روحية وتأهبت للانصراف ، أمسكت عايدة بذراعها :
ـ لا والله ياروحية ، ابق للافطار معنا ، انني وحيدة كما ترين ، ابق لنفطر معا ..

قالت روحية في شفافية لم تألفها من قبل مع غريمتها :
ـ كان بودي ياعايدة ، لكنهم في البيت لا يعرفون ..

أشارت عايدة الى الهاتف وقالت :
ـ أخبريهم بالتليفون ..

ردت روحية :
ـ مرة أخرى ..
ثم وهي تنصرف :
ـ مرات أخرى في القريب باذن الله ..

* * *

تاه جمال فى المدينة الفسيحة ، مشى يحدق فى الأبنية الجديدة ، يقف طويلا فى الميادين الفسيحة ، رأى الكبارى المعلقة ، رأى بسمنى وطنه وقد تغيروا وتبدلوا ، لمس روح النصر وقد سرت فى الدماء ، لمح على الوجوه بشاشة ، وفى النفوس أنفة وعزة وكرامة ، الجميع يتطلع اليه فى تيه وفخر ، أعجب كثيرا برؤية المارة ينتظرون الاشارة الخضراء ليعبروا من طوار الى آخر ، لمس روح النظام وأدرك سر النصر ، كان الناس يفسحون له الطريق ، وينظرون اليه نظرات مليئة بالحب والعرفان ، كاد يقول انه لم يحظ بشرف القتال ، وانه كان أسيرا لدى العدو ، لكن سترته أسبغت عليه الشرف العظيم ، نظرات الناس اليه أوسمة يعلقها فى ذهنه سعيدا فخورا ..

كان الناس فى كل مكان يتحدثون عن الحرب ، لا يملوا الحديث عن النصر ، يشوب أحاديث بعض الأفراد مرارة طفيفة لتسلل العدو الى الغرب ، يعلنون مرارتهم بالنصر الناقص ، وفى الحال يتصدى لهم آخرون ، ويؤكد البعض أن الجيش الذى عبر أعظم مانع مائى ، وأن الرجال الذين اقتحموا خط بارليف المنيع لقادرون على ابادة القوات المتسللة فى ظرف ساعات ، كان النصر فى قلوب الناس عظيما لا يقلل من عظمته تلك الثغرة ، لم يفقد الناس بسببها الثقة فى قوة جيشهم ، ولا فى بصيرة قيادته ، لم يجد جمال فى الناس روحا غير روح القتال حتى النصر ..

تذكر جمال الطريق الى بيت أسرته فى شبرا ، توجه الى هناك سيرا على الأقدام ، وقف أمام البيت ينظر اليه بشوق جارف ، وفى عينيه تترقرق الدموع ، يعانقه بنظراته جملة ، وتفصيلا يعانق النوافذ ، يعانق الباب الحديدى ، يعانق الطلاء الأبيض ، يعانق الشجيرات الصغيرة فى مدخله ، دلف يمشى فى بطء يتحسس ببطن حذائه المتهالك الأرض ، يشعر بأنه طفل يبدأ أولى مراحله فى الخطو ، صعد الدرجات وهو يقاوم عواطفه بعنف فلو أفلت زمامها سيصعد الدرجات جريا ، وسيصرخ بأعلى صوته

معلنا نبأ عودته ، لكنه تذكر وقع أية مفاجأة ، هو نفسه كاد يقع مشلولا والجيش يقتحم مدينة القنطرة ، التى كان مكبلا فى الأسر بها ، يعمل ليل نهار خادما ، وعبدا ، ومرمطونا لحفنة من الضباط الأعداء ، تذكر مفاجأة الجيش المصرى وكاد لا يقوى على الكلام أو الحركة ، أخذ يهدئ من ضربات قلبه ، وقف أمام باب الشقة يتلقط أنفاسه ، يجفف عرقه ، يرد الى ذراعيه رباطة جأشها ، دق جرس الباب ، تريث ينصت الى خطوات تقترب ، أدرك أنها ليست خطوات أمه ، فوجئ بشراعة الباب تفتح ، أطل من ورائها وجه سيدة عجوز ، تراجع الى الوراء خطوة ، حدق فى الباب ، ظن أنه أخطأ ، ابتدرته السيدة متسائلة :

- نعم ، أى خدمة ؟

تلجلج وارتج عليه القول وهو يزدرد لعابه قائلا :

- أسأل عن ..

وبعد جهد ومشقة قال :

- الأستاذ حسين ..

هزت السيدة رأسها وقالت :

- آه ، الاستاذ حسين صاحب البيت ..

امتلأ صدره بالاطمئنان ، قال بسرعة وأسارير وجهه تنفرج :

- نعم .. هو خالى ..

تلكأت المرأة قليلا وهى تصعده من قدميه الى قمة رأسه ، [illegible] اليه بشئ من الدهشة والازدراء ، بضع ثوان غاب فيها عن الوجود ، تذكر فيها ملامح خاله ، لا شك انه كبر ، وعلت التجاعيد وجهه ، ولا شك أيضا أنه يحتفظ بصوته وضحكته المرحة المجلجلة ، وصوته الآمر الناهى ، يشيخ خاله ويتهدل جسده وتعلو التجاعيد وجهه لكن قلبه لا يشيخ ، يبيض الشعر فوق الهامة لكن صوته لا يشيخ ، أخرجته المرأة من شروده قائلة :

ـ الأستاذ حسين ترك البيت منذ سنين ، قلت انه خالك ..
ـ نعم ..
ـ عجبا ، ألا تعرف انه انتقل الى مصر الجديدة ؟
لمح الدهشة على أساريرها ، لكنه لم يحر جوابا .. وهى تعقب قائلة :
ـ باع البيت واشترى بيتا هناك فى مصر الجديدة .

شعر جمال بالاحباط ، تبدد الأمل وتلاشى ، تمالك نفسه وأوقف الدموع فى مآقيه ، قال فى رنة أسى :
ـ ألا تعرفين العنوان ؟

هزت رأسها بالنفى :
ـ مع الأسف يابنى ، استأجرنا شقته من المالك الجديد ..
قال على الفور :
ـ وأين المالك الجديد ؟ هل يسكن هنا ؟ هل ..

هزت رأسها بالنفى ثانية وقالت :
ـ انه فى السعودية ..

شكر جمال السيدة ، هبط الدرجات فى تثاقل يستمع الى دبيب خطواته الثقيلة كأنها مطارق تدق جانبى رأسه ، وقف مستندا الى الباب الحديدى ، يرقب الحركة فى الشارع ، الترام يخترق الشارع فى سرعة ، الأتوبيسات تظهر وتختفى ، النـــاس يمـلأ ضجيجهم أسماعه ، اتجهت عيناه الى المقهى حيث اعتاد خالــه الجلوس ، أمنية غريبة تطرق ذهنه ، غير مستحيل أن يحضر خاله من مصر الجديدة ليجلس فى المقهى ، كل أصحابه يجلســـون فيها ، تلفت باحثا بين الرواد عن أصدقاء خاله ، لم يجد أحدا ، فكر أن يسأل صاحب المقهى ، تراجع فى اللحظة الأخيرة ، بدت له الوجوه غير الوجوه التى عرفها ، لم يجد أمامه سوى الصيدليـــة العتيقة بجوار المقهى ، اندفع داخلا اليها ، تعرف على الدكتور

فخرى ، انه هو رغم بصمات السنين التى غيرت شكله ، بان عليه الكبر بصورة فجة ، تهدلت أكتافه ، لا يبين من داخل حلته القديمة ، كأن جسده قد أصيبت أعضاؤه بالضمور ، سأله جمال فى صوت خفيض :

ـ من فضلك يادكتور ، هل يمكنك أن تدلنى على عنوان الأستاذ حسين ؟

اقترب الرجل برأسه وتساءل :

ـ ماذا يابنى ؟

رفع جمال صوته وكرر ما قاله ‥ هز الرجل رأسه علامة الفهم وقال :

ـ الأستاذ حسين ‥

وأشار الى أعلى :

ـ صاحب البيت ‥

قال جمال متشبثا بشفتى الرجل :

ـ نعم ‥ أريد عنوانه فى مصر الجديدة ‥

فتح الدكتور فخرى احدى ادراج مكتبه الصغير ، أخرج دفترا أخذ يفتش فيه ، تهلل وجهه وهو يقول :

ـ أنت ابن حلال ، ها هو العنوان ، كثيرا ما فتشت عنه ولم أعثر عليه ‥ خذ وانقله ‥

فتش جمال فى جيوبه فلم يعثر على شىء ، يعرف الطريق الى ميدان رمسيس ، وعليه أن يركب المترو الى مصر الجديدة ، كيف يمكنه ذلك دون نقود ، عاود النظر الى الصيدلية ، فكر فى طلب نقود من الدكتور فخرى ، شعر بالخجل ، هل سيقطع المسافة سيرا على الأقدام ، تقدم بخطواته نحو بابها ثم تراجع ، سيظنه الرجل محتالا ، خاصة وأنه يملك هيأة غير مألوفة ، ملابسه ممزقة ، شعره كثيف وذقنه كغابة ، هيأته كلها على الاجمال لا تسر ، يخشى أن يقدم نفسه الى الرجل فيصعق ويسقط من طوله فاقد الحياة ،

ألا يكفى أن أعطاه العنوان ؟ ، مشى على مهل يفكر ، لم يجد سوى المجازفة ، كان ميتا وعاد الى الحياة ، كل ما فى الحياة تافه الى جوار معاناته ، انه لا يصدق تحرره من تحت بطش العدو ، حتى هذه اللحظة يجد نفسه والعيون تراقبه ، فوهات المدافع الرشاشة مصوبة الى رأسه ، لا يهم أى شئ ، استوقف سيارة ، طلب من السائق نقله الى مصر الجديدة ، تلا العنوان على مسمع منه ، قال السائق :

ـ حمدا لله على السلامه يا بطل ..

شكره جمال ، انطلقت السيارة ، ينظر جمال من وراء زجاجها الى الشوارع ، مشدوها كطفل صغير ، نسى انه خالى الجيوب ، وأن السائق سيطالبه بأجره فى آخر المشوار ولا ساقه الى قسم الشرطة .. وحين نطق باسم الشرطة فى مخيلته شعر بالاطمئنان ..

* * *

وقف جمال يشيع السيارة مندهشا ، يكاد لا يصدق ، شهامة السائق ، لم يقل له سوى " دقائق وأحضر لك أجرك " ، علقت بذهنه نظرة الاعجاب التى رمقه بها السائق وقال :

— حمدا لله على السلامه ..

ثم انطلق بسيارته ، تحسس جمال جسده للتأكد من كونه على قيد الحياة ، منذ سنوات ترك خلفه غابة ، يأكل القوى فيها من لا حول له ولا قوة ، مصمص شفتيه ومشى متتبعا أرقام العمارات ، وقف أمام العمارة رقم ١٦ ، شملها بأدوارها الخمسة ، اقترب من مدخلها ، رأى البواب متربعا فوق دكة خشبية ، تقدم بحذر منه وسأله :

— أين شقة الأستاذ حسين ؟

سأله البواب مستفسرا :

— حسين بك صاحب العمارة ولا حسين بك الساكن ؟

قال جمال :

— صاحب العمارة ، وله ابن أخت اسمه عاطف..

هب البواب واقفا ، دس قدميه فى النعل ، مسح دموعه التى انسابت بكم جلبابه وقال بصوت مبلل :

— سيدى عاطف ، الله يرحمه ، بطل والله وأمه ست الناس..

ثم عاد وسأل جمال :

— أتريد الأستاذ حسين لحاجة مهمة ؟

هز جمال رأسه بالايجاب ، وصوته يختنق بالدموع التى جهد فى حبسها ، استطرد البواب قائلا :

— كلهم فى الهرم عند الست روحية..

ضغط جمال شفتيه بأسنانه ، وضع يده على بطنه يكبح جماح معدته المتلوية ، صدره يتسع ويضيق ، تمتم فى نفسه " مات أخى " وأدار ظهره منصرفا ، عاد البواب الى دكته الخشبية وتربع فوقها .

بضع خطوات مشاها جمال بوعى مفقود ، لا يكاد يتبين من غزارة الدموع الطوار من نهر الطريق ، تراجع ذهنه سريعا الى الماضى ، رأى أمام عينيه أمه ، وأبيه ، أخيه وحبيبته نجوى ، خاله وخالاته ، امتلأت رأسه بالخواء نتيجة تصارع الذكريات البعيدة والقريبة ، امتلأت بفرقعة القنابل فوق المستشفى ، وقعقعة الهرج الذى ساد نتيجة انهيار الجدران ، الصراخ والعويل ، الغبار والتراب يخيم فوق الرؤوس ويغشى العيون ، اختلطت الدماء بالنار بالصراخ بالدمار ، عاد ذهنه من فوره الى عام ٦٧ وأطلق ساقيه للريح يسابق الموت ، والأسر ..

تهالك جالسا فوق الطوار ، المشوار من مصر الجديدة الى الهرم طويل طويل ، عليه أن يقطعه ، لا يدرى منذ متى عادت أمه الى أبيه ، وهل انفصل عن زوجته مادلين ؟ ، هل عادت الحياة الى مجاريها ؟ ثم تسائل فجأة : هل مازال أبوه على قيد الحياة ؟ وزوجته ؟ ، وأى من خالاته مات وأى منهن على قيد الحياة ، هل تزوجت نجوى ؟ ، وممن تزوجت ؟ ، هل مازالت خالته مديحه عانسا ؟ ، أم تزوجت ، مزيد من الأسئلة تبرز فى رأسه ولا يستطيع أن يجد اجابة على أى منها ، اللوح فى ذاكرته أملس والمشوار لمعرفة الاجابات طويل طويل ، يمتد من مصر الجديدة الى الهرم وهو مرهق ، مكدود ، متعب ، لم ينم منذ يومين ، لا يذكر ، ربما ثلاثة ، لم يستطع فى صندوق السيارة التى أقلته مع عدد كبير من المرضى والجرحى أن يغفو ساعة أو بعض ساعة ، كيف ينام وحوله التأوهات وعذابات الآلام تصهر الحديد ، كيف يغمض له جفن ورائحة تقيح الجروح تغزو أنفه ، كيف وبين الحين والحين ينتفض واحد من المحشورين معه ويسلم الروح ، كيف ؟ وكيف ؟ لم يأكل شيئا ، لم يرطب لعابه بنقطة ماء ، منذ خرج متحررا من ربقة الأسر ، من مدينة القنطرة شرق واللهفة لأسرته أفقدته شهيته لأى شئ ، نسى حاجات جسده الضرورية ، وبعد اللهفة جاء الاحباط ، حلم وهو فى الطريق الى شبرا بأنه

سينام أسبوعا بكامله وبعده يفيق ، سيمضى يوما أمام مائدة الطعام يأكل حتى يشبع ، تبدد الحلم ، ثم ولد من جديد بعد حصوله على العنوان من الدكتور فخرى صاحب الصيدلية ، وجاء سريعـــا الى البيت ، ووجده خاويا ، اغتالته المفاجأة بخبر موت عاطـف، الآن كل خلجة فيه تتقلص مطالبة بحقها ، معدته بها أفعى تتلوى وتسرى سمومها الى الأمعاء ، بلعومه تصلب كقطعة من الخشب ، لعن كل شئ ، الحياة والحرب ، النار والماء والهواء ، الحريـــة والأسر ، وتمنى لأول مرة فى حياته الموت ، وتكوم فوق الطوار ..

* * *

جفف الدكتور مصطفى دموعه وهو يرد على التليفون ، هتف من أعماقه :

— ابنى أنا بالمستشفى ، أى مستشفى ؟ ، شكرا ، شكرا ..

التفوا جميعا حوله ، تساءلت الشفاه والعيون فى لهفة وترقب قال الدكتور مصطفى والحيرة تتراقص فى عينيه :

— هل هذا معقول ؟ ، ابننا بالمستشفى ..

هرولوا فى أعقاب بعضهم البعض ، ضمت سيارة حسين مديحة وروحية وفاطمة ، وضمت سيارة الدكتور مصطفى عايدة ، وعصمت وزوج مديحة ، توقفت العربتان بعد عناء المرور امام مستشفى عسكرى ، احتياطات الأمن شديدة ، طلب منهم ابعاد عرباتهم الى طريق جانبى ، منع الجميع من الدخول أما الدكتور مصطفى فلم يمنعه أحد ، قال من وراء الباب الحديدى لحسين :

— سأعود حالا لأطمئنكم ..

وقفوا فى شبه حلقة ، قالت روحية :

— ماجاءنا به علاء الدين فيه خطأ ..

قال حسين :

— اننا فى حيرة ، من نصدق ؟ ، لقد أحضر لك حافظته وساعته وخاتمه ، كيف ؟

قاطعه زوج مديحه :

— الأمر فى غاية البساطة ، ربما احتفظ بحاجياته عندما تركه بالمستشفى ..

وعقب حسين :

— وحين ضربت المستشفى ظن انه مات ضمن من ماتوا ..

قالت فاطمه :

— فليرحمنا الله من هذا الظن ..

قال عصمت فى هدوئه المعهود :

ـ ياجماعة الصبر ، سيأتينا الدكتور بالخبر اليقين ٠٠

طال غياب الدكتور مصطفى بالداخل ، اقترب حسين فى هدوء ، حاول استمالة الحرس ، أخذه أحدهم الى الضابط فى فى حجرة الاستعلامات ، وقف حسين مرتبكا وتساءل :

ـ جائتنا اشارة تليفون بأن ابننا هنا ، هل يمكن أن نراه ؟

قال الضابط :

ـ اعطنى اسمه لو سمحت ٠٠

رد حسين من فوره :

ـ عاطف ، عاطف مصطفى شعلان ، كان فى الجبهة و٠٠٠

انصرف الضابط الى الأوراق أمامه يقلبها ، مصمص شفتيه وقال :

ـ هل أنت متأكد انه هنا ؟

قال حسين مؤكدا :

ـ بالطبع ، جئنا على أثر الاشارة التليفونية ٠٠

ثم أشار الى داخل المستشفى معقبا :

ـ والده الدكتور مصطفى بالداخل ، تأخر علينا ٠٠

قال الضابط فى هدوء :

ـ تفضل يا أستاذ ، اجلس ٠٠

ثم كلف أحد أفراد الحرس بالدخول والبحث عن الدكتور مصطفى واحضاره ٠٠

اتجه الضابط بعدها بكامل وجهه الى حسين وقال :

ـ اهدأ ياوالدى ، كلنا معذورون ، تعرف حالة الطوارئ ، ممنوع علينا تواجد أحد من المدنيين بالداخل ٠٠

أطاح حسين بدموعه وقال :

ـ لا نريد سوى الاطمئنان ، اننا فى اضطراب وخوف ، اعذرنا فقد تلقينا من الجبهة خبر استشهاده ، حمل الينا الخبر جندى من كتيبته ، وحين تلقينا الاشارة أصابنا الوجل ، اننا لا نعرف هل مات ؟ أم أصيب ؟ ..

ثم توقف حسين وهب واقفا ، والدكتور مصطفى يخرج من باب المستشفى الداخلى مستندا بذراعيه على كتفى جنديين ، يمشى بطيئا كأن ساقيه فقدتا القدرة على حمله ، تقدم حسين لملاقاته لم يتمالك الدكتور نفسه وأجهش بالبكاء ، تهالك على الأرض قائلا فى صوت متهدج :

ـ انه جمال يا حسين ، انه جمال ..

صرخ حسين من المفاجأة :

ـ جمال .. جمال ..

اهتزت الأرض ، أخذ تتأرجح كالموج ، وحسين يميل معها يمنة ويسرة ، فيمنة ويسرة ، ضاقت شرايين رأسه ، واتسعت ، ثم ضاقت واتسعت ، الشهيق يلاحق الزفير ، والزفير يلاحق الشهيق ، النهار غيبه سواد الليل ، وسواد الليل شيعه ضوء النهار ، عاود الصراخ :

ـ تقول جمال يا مصطفى ؟ ..

ثم تطلع الى السماء :

ـ الرحمة يارب .. ارحم عبادك الضعفاء ..

وحانت منه التفاتة الى الباب الحديدى ، تكاد رؤوس النسوة الثلاث تنفذ من القضبان الحديدة الضيقة ، يشوحن بأيديهن ويصحن :

ـ أهو حى ؟ ، أهو حى ؟ ..

أمسك الضابط بذراعى حسين وقال :

ـ هون عليك يا والدى .. هون عليك ..

قال حسين فى صوت متحشرج :

ـ أسمعت عن المستحيل يابنى ، انه يحدث لنا ، يحـــدث لنا المستحيل ..

هز الضابط رأسه متعجبا ، بينما اتجه حسين الى البــاب ، أمسك القضبان بيديه الاثنتين وقال :

ـ انه جمال ياروحية ، ابنك جمال ياروحية ..

تهالكت روحية ، بينما صرخت مديحة ، وفاطمه تردد :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ، لا حول ولا قوة الا بالله ..

* * *

مرة أخرى سقطت روحية فى بحيرة راكدة ، لم تستطع طوال أسبوعين قضاهما ابنها بالمستشفى زيارته مرة واحدة ، فمنذ فوجئت بالخبر وهى طريحة الفراش ، يعودها عدد من الأطباء كل يوم يحاولون تشخيص الداء الذى ألم بها ولم يفلحوا ، تعجبوا للأمر وبعد أن تم عمل " كونصلتو " قالوا ، واجمعوا على أن مرضها نفسى ، ولا أثر لأى علة عضوية ..

وحين خرج جمال من المستشفى ، وجلس الى جوارها على الفراش ، حاول اخراجها من بحيرة الصمت التى ألمت بها ، قال فى حنانه القديم :

— ماما .. جمال معك ياماما ..

تطلعت اليه ، أغرورقت عينيها بالدموع ، ولم تستطع أن تتفوه بكلمة ..

يجتر جمال أمامها قصة الأسرة بجميع أفرادها طوال غيابه ، والتى عرفها من أشخاصها أثناء زياراتهم له بالمستشفى ، محاولا اعادة وعيها المفقود ، يحاول أن يتذكر أمامها بعضا من طفولته بين ذراعيها ، يحاول تذكيرها بآمالها نحو زواجه من نجوى ، وقصص بطولاته فى حرب اليمن ، يعيد الى ذهنها المناقشات ، والمجادلات الحامية مع خاله فى الأمسيات البديعة التى عاشها بينهم ، وتذهب كل محاولاته هباء ..

ثلاثة أسابيع ، وروحية تنظر حولها فى صمت ، تبدو وكأنها لا تعرف أحدا ، لا تسمع شيئا ، طعامها لا يزيد عن بعض السوائل ، كعصير الليمون ، أو البرتقال ، لا تبرح فراشها الا للحاجة الملحة ، لا تكلم أحدا ، لا تبكى ، ولا تبتسم ..

بدت الحياة غريبة فى عينى جمال ، لا مكان فيها للمرح ، لا مكان لمزحة ، رأى الحزن يغلف كل شىء ، البسمة عملة نادرة ، والضحكة كالقمر مكتملا فى أول الشهر العربى ، ضاق ذرعا

شعر باليأس والأسى معا ، واكتشف أن مارآه يوم قطع العاصمة طولا وعرضا بحثا عن أسرته كان سرابا مخادعا ، سأل خاله حسين عن الأهل :

ـ أين أهلنا ياخالى ؟

تنهد خاله فى أسى وقال :

ـ كل مشغول بأمور حياته يابنى ، لم يعد الزمن زمن مودة ٠٠

ومصمص الدكتور مصطفى شفتيه معقبا :

ـ لعنة الحياة المادية أصابت الناس جميعا ٠٠

ثم سأل جمال خاله وأبيه :

ـ لماذا لا تتكلم أمى ؟

قال خاله :

ـ لا أدرى يابنى ٠٠ ويبدو أن الأمر ليس عارضا ٠٠

قال الدكتور مصطفى :

ـ كلنا يعرف روحية ، ونعرف جميعا امكانياتها الفكرية ، وقوة ذكائها ، ولعلى لا أخطئ اذا قلت انها تعانى ازدواجية فى المشاعر ، فى قلبها حزن كبير على عاطف ، واقتحم قلبها فرح كبير لعودة جمال ، بين الحزن الكبير والفرح الكبير ٠٠

ودمعت عيناه وهو يستطرد :

ـ بين الحزن والفرح ضاعت روحية ٠٠

صاح جمال متألما :

ـ لابد من علاج ياأبى ٠٠

تطلع الدكتور مصطفى الى أعلى وقال :

ـ الله وحده يعلم ما بها يابنى ٠٠

ـ أريد أن أسمعها تتكلم ، أريد أن أسمعها تضحك ٠٠ أريد

أن تناديني باسمي ، وأن ••

قاطعه خاله حسين قائلا :

ـ لا تيأس من رحمة الله يا ولدى ••

دفن جمال وجهه بين كفيه وأخذ ينهنه ، ثم قال :

ـ ليتنى ما أسرعت بالعودة ، ليتنى مت •• لو أدركت للحظة انه يمكن أن يحدث ماحدث لعشت بعيدا فى أى مكان ••

قال الدكتور مصطفى محاولا تهدئته :

ـ الأيام كفيلة يابنى باعادتها لحالتها الطبيعية ••

* * *

جلس حسين وحده فى الشرفة ، ينظر الى السماء ، يبدو فى شروده كمن يناجى الله ، أو كمن يتطلع الى الأفق ، وفى رأسه فكرة أو خاطرة يحاول فلسفتها ، ينسى السيجارة بين أصبعية حتى يحس بلسع النار فيلقى بها فى منفضة السجائر ليشعل غيرها ، لقد انتهى من اعداد حقيبة السفر ، ليس على سفر ، وانما تضم داخلها كل ملابس جمال التى تركها منذ سنوات طويلة ، انه فى حاجة اليها ، رغم قدم موديلاتها ، وبعضها أصابه القدم ، الا أن جمال يريدها بحالتها ، بقى عليه أن ينقلها الى بيت أبيه فى الهرم ، أحرقت السيجارة اصبعيه ، وأشعل غيرها ..

مضى أكثر من شهر ونصف وروحية بحالتها ، والجميع حولها يحيطونها بالرعاية ، ويحاولون اخراجها عن صمتها ، لكنها صامتة وكأنها تحولت الى انسان حجرى انبعث من عمق التاريخ ..

خامرته فكرة ، ثم راودته ، ثم امتلكت زمام رأسه ، ثم أقدم على تنفيذها ..

دق جرس الباب ، فتحت نجوى ، استقبلته بترحاب كبير ثم قادته الى الصالون ، جلس برهة وحين سألته عن مشروبه الذى يفضله فى حالته هذه ، وقد رأت السواد بلسانه وشفتيه من كثرة تناول القهوة والسجائر ، وقد صدق حدسها اذ طلب منها اعداد عصير الليمون ..

تناول حسين عصير الليمون وشكرها ، ثم قال :

— أعرف يانجوى أن ما أنوى طلبه منك كثير ، لكن من أجلها ، أقصد ماما روحية يمكنك أن تبذلى بعض التضحية ..

قالت نجوى متأثرة :

— حقيقة أنا متألمة ، لكنى لا أريد ، بل لا أستطيع مواجهة الماضى ..

قال حسين محاولا كبت مشاعره المهتاجة :

— حرام أن نفقد آخر أمل لنا ، ستواجهين الماضى مهما حاولت

الابتعاد عن طريقه ، ثم انك في حل منه··

قالت نجوى ودموعها تنحدر ببطء :

ـ أخشى هذه المواجهة ··

ـ تذكرى دائما أن جمال عم ابنك ، ولن يحرم طويلا من رؤيته··

قالت نجوى وهى تجفف دموعها :

ـ أنا لا أمنعه عنه ، بل على العكس ، لقد طلبت من أمى أن تأخذه فى زياراتها لكم ، لكنها تعللت بصغره وحاجته الى طول الوقت ··

بدا اليأس على وجه حسين ، أشعل سيجارة وقال :

ـ يعنى لا أمل··

قالت نجوى :

ـ وجمال ، كيف هو ؟

قال حسين متشجعا :

ـ ليس كما تعرفينه ، يبدو كانسان هرم ، أنا أبدو أكثر منه شبابا··

تمتمت نجوى :

ـ مسكين ··

واستطرد حسين :

ـ لا تتصورى ما قاله حين عرف بزواجك من المرحوم عاطف ، لا تتصورى فرحته التى غمرت وجهه للحظة خاطفة وهو يقول : " خيرا فعلت·· "

قالت نجوى فى حماس :

ـ تعرفون كلكم السبب فى زواجى من عاطف ، لم أخن العهد الذى قطعته لجمال ··

قال حسين مسرعا :

ـ وهو يعرف كل ذلك بالتفصيل·· وتعرفين أنه يضع سعادة

أمه فى المقام الأول ..
ثم استطرد بعد أن نفث دخانا كثيفا من فمه :
ـ أتضنين علينا بالمساعدة يا ابنتى ..

شردت نجوى لحظة ثم هبت واقفة وقالت :
ـ سأستبدل ملابسى وأحضر معك ..

* *

وفى السيارة قال حسين :
ـ شىء واحد فكرى فيه ، هو أنك ستواجهين الماضى والمستقبل معا ..

هتفت نجوى متسائلة :
ـ كيف ؟
ـ لابد وأن تلعب روحية دورا فى حياتك ، تعرفينها جيدا .. ولا سبيل الى التراجع ..

هزت رأسها علامة الفهم وقالت :
ـ لا أظن أن جمال يوافقها هذه المرة .. لا أظن أن قلبه يحمل ذرة من الحب القديم ، لاشك أنه عذب وذاق الويل الى الدرجة القصوى ، لا أظنه يفكر فى شىء يخصنى ..
قال حسين متوجسا :
ـ ولكن الاحتمال وارد فى فكرى ..

نظرت الى ابنها وقالت :
ـ ارادة الله فوق الجميع ..
ـ وهو الرؤوف الرحيم ..

* *

توقفت السيارة ، غادرتها نجوى تحمل ابنها ، وفى أعقابها حسين ، دلفا الى الفيلا ، وقادها حسين الى حجرة روحية ..
نظرت اليها روحية طويلا ، ودمعت عيناها ، فتحت يدها

وأمسكت بيد نجوى ، رفعتها الى شفتيها وقبلتها ، مالت نجوى واحتضنت روحية ودموعها تمسح وجه روحية المتجلد من الوجد والأحزان ، همست نجوى فى أذنها :

ـ سلامتك ياماما ‥ سلامتك ياحبيبتى ‥

وصرخ جمال الصغير ، يطلب ثدى أمه ، ابتسمت روحية بعد طول عبوس ، ثم طلبت جمال الصغير ، ناولته لها نجوى ، قبلته روحية ، وبكت ، ثم ابتسمت ، ثم قالت :

ـ حبيبى ، حبيبى ‥ حبيب ستك روحية ‥

ثم تطلعت الى حسين وقالت :

ـ أين ابنى جمال ‥ ؟ أين ذهب ياحسين ؟

تلفت حسين حوله ، قالت فاطمه :

ـ مع أبيه ‥

ـ ناده يافاطمه ‥ ناده ‥

خرجت فاطمة من الحجرة ، بعد قليل أقبلت وخلفها أقبل جمال ، وقف برهة يتطلع الى نجوى ، ثم تقدم ومد يده :

ـ أهلا نجوى ‥

ـ أهلا جمال ‥

ـ حمدا لله على السلامه ‥

ـ الله يسلمك ‥

كان الهدوء الذى اكتنف اللقاء مطمئنا لنجوى ، وحسين ، ومهيجا لروحية اذ قالت غاضبة :

ـ أهكذا يكون اللقاء ؟

ثم عقبت :

ـ وكأنكما غرباء ‥

قال حسين مؤكدا :

ـ هى الحقيقة ، كلنا غرباء فى هذه الحياة ‥ ولا تشغلى

بالك بغربتنا ، كل الناس فى هذا العالم غرباء ، بدليـــل ملايين المهاجرين من بلادهم الى بلاد أخرى على امتداد عالم اليوم ، الكل ينسلخ من جلده ٠٠

قالت روحيـــة :

ـ لكننا أسرة ياحسين ، لابد من عودتنا من غربتنا ٠٠ لابد ٠٠

قال حسين :

ـ نحتاج الى أزمان ٠٠

وعاود جمال الصغير الصراخ ، فقد انساه جوعه دلال روحيــة له ، أمسكت به أمه وألقمته ثديها ، وجمال الكبير يقول :

ـ دعيه يصرخ فى وجه هذا العالم ٠٠ دعيه يصرخ ٠٠

وبعد فترة قصيرة ، تفرق الشمل ، نجوى الى بيت أسرتها ، برفقة حسين وزوجته فاطمه ، ومديحـة استقلت سيارتها الى بيتها ، وصحب الدكتور مصطفى جمال ليساعده فى ترتيب ملابسه بالدولاب ، وقبل أن يتركه قال جمال :

ـ ليتنى أستطيع ياأبى ترتيب حياتى من جديد ٠٠

ولم ينبس الدكتور مصطفى بكلمة ، وأغلق باب الحجرة وراءه ٠

* * *

للمؤلــف

الأبيض والأسود : قصص قصيرة

يصدر قريبـا :

دراما الحيـــاة : قصص قصيرة

ويشترك المؤلف مع بعض الأدباء العـــرب
والمصريين فى " ألوان من القصة العربيـــة "

مكتب النيل للطبع والنشر
١٢ شارع عبده بدران ــ محطة
الباشا ــ المنيل

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٣/٣[illegible]٤١